غِنَى الخَالِقِ

وَفَقْرُ الخَلَائِقِ

تأليف

عبد الهادي بن حسن وهبي



الطبعة الأولى
١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م

جمعية السراج المنير الإسلامية

لبنان - بيروت - هاتف وفاكس: ٠١/٧٩١٠٥١ ص.ب: ١٣٦٠٩٣ شوران
الموقع على الشبكة: www.asseraj.net - بريد إلكتروني: asseraj@asseraj.net
رقم الحساب: (٣٣٠٤) بنك البركة - بيروت



بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إنَّ الحَمدَ للهِ نَحمَدُهُ وَنستَعِينُهُ وَنستَغفِرُهُ، وَنعُوذُ باللهِ مِن شُرورِ أَنفُسِنا وَسَيِّئَاتِ أَعمالِنَا، مَن يَهدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَن يُضلِل فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشهَدُ أَن لَا إِلهَ إِلَّا اللهُ، وَحدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبدُهُ وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ

وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ [الأحزاب: ٧٠ - ٧١].

أَمَّا بَعدُ: فَإِنَّ أَصدَقَ الحَدِيثِ كِتَابُ اللهِ، وَأَحسَنَ الهَديِ هَديُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرَّ الأُمُورِ مُحدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحدَثَةٍ بِدعَةٌ، وَكُلَّ بِدعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.

إِنَّ اللهَ سبحانه وتعالى مَوصُوفٌ بِصِفَاتِ الكَمَالِ، مَنعُوتٌ بِنُعُوتِ الجَلَالِ، مُنَزَّهٌ عَنِ العُيُوبِ وَالنَّقَائِصِ وَالمِثَالِ، فَهُوَ كَمَا وَصَفَ نَفسَهُ فِي كِتَابِهِ، وَفَوقَ مَا يَصِفُهُ بِهِ خَلقُهُ. تَمَّت كَلِمَاتُهُ صِدقًا وَعَدلًا، وَجَلَّت صِفَاتُهُ أَن تُقَاسَ بِصِفَاتِ خَلقِهِ شَبَهًا وَمَثَلًا، وَتَعَالَت ذَاتُهُ أَن تُشبِهَ شَيئًا مِنَ الذَّوَاتِ أَصلًا، وَوَسِعَتِ الخَلِيقَةَ أَفعَالُهُ عَدلًا وَحِكمَةً، وَرَحمَةً وَإِحسَانًا وَفَضلًا، لَهُ الخَلقُ وَالأَمرُ، وَلَهُ النِّعمَةُ وَالفَضلُ، وَلَهُ المُلكُ وَالحَمدُ، وَلَهُ الثَّنَاءُ وَالمَجدُ. أَسمَاؤُهُ كُلُّهَا أَسمَاءُ مَدحٍ وَحَمدٍ وَثَنَاءٍ وَتَمجِيدٍ، وَلِذَلِكَ كَانَت حُسنَى. وَصِفَاتُهُ كُلُّهَا صِفَاتُ كَمَالٍ، وَنُعُوتُهُ كُلُّهَا

نُعُوتُ جَلَالٍ، وَأَفعَالُهُ كُلُّهَا حِكمَةٌ وَرَحمَةٌ، وَمَصلَحَةٌ وَعَدلٌ. وَهُوَ الَّذِي لَا يُحَدُّ كَمَالُهُ، وَلَا يُوصَفُ جَلَالُهُ وَجَمَالُهُ، وَلَا يُحصِي أَحَدٌ مِن خَلقِهِ ثَنَاءً عَلَيهِ: بِجَمِيلِ صِفَاتِهِ، وَعَظِيمِ إِحسَانِهِ، وَبَدِيعِ أَفعَالِهِ، بَل هُوَ كَمَا أَثنَى عَلَى نَفسِهِ.

وَبَعدُ: فَهَذَا فَصلٌ نَافِعٌ يَتَضَمَّنُ الكَلَامَ عَلَى صِفَةِ غِنَى الخَالِقِ سبحانه، وَالآثَارَ المَسلَكِيَّةَ مِنَ الإِيمَانِ بِصِفَةِ الغِنَى.

أَسأَلُ اللهَ تَعَالَى «أَن يُوَفِّقَنَا لِمَا يُرضِيهِ مِنَ القَولِ وَالعَمَلِ وَالنِّيَّةِ، وَأَن يُحيِيَنَا عَلَى الطَّرِيقَةِ الَّتِي يَرضَاهَا، وَيَتَوَفَّانَا عَلَيهَا، وَأَن يُلحِقَنَا بِنَبِيِّهِ وَخِيرَتِهِ مِن خَلقِهِ مُحَمَّدٍ المُصطَفَى وَآلِهِ وَصَحبِهِ، وَيَجمَعَنَا مَعَهُم فِي دَارِ كَرَامَتِهِ، إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ مُجِيبٌ»[١].



(١) «الاقتصاد في الاعتقاد» (ص٢٢٣- ٢٢٤)، للحافظ عبد الغني المقدسي رحمه الله.





غِنَى الخَالِقِ وَفَقْرُ الخَلَائِقِ

إِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هُوَ الغَنِيُّ بِذَاتِهِ، الَّذِي قَد كَمُلَ فِي غِنَاهُ، فَلَهُ الغِنَى المُطلَقُ التَّامُّ، بِكُلِّ وَجهٍ وَاعتِبَارٍ مِن جَمِيعِ الوُجُوهِ.

وَكَمَا أَنَّهُ الحَيُّ لِذَاتِهِ، العَلِيمُ لِذَاتِهِ، السَّمِيعُ البَصِيرُ لِذَاتِهِ، فَغِنَاهُ العَالِي مِن لَوَازِمِ ذَاتِهِ، فَهُوَ وَصفٌ مِن أَوصَافِ ذَاتِهِ الكَمَالِيَّةِ.

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ١٥﴾ [فاطر: ١٥].

وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ هُوَ ٱلْغَنِيُّ﴾ [يونس:٦٨].

قَالَ ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ:

وَهُوَ الغَنِيُّ بِذَاتِهِ فَغِنَاهُ ذَا
تِيٌّ لَهُ كَالجُودِ وَالإِحسَانِ[1]

---

(١) «الكافية الشافية» (ص٢٠٨).



وَمِن كَمَالِ غِنَاهُ: أَنَّهُ كَامِلُ الأَوصَافِ، فَلَهُ كُلُّ صِفَةِ كَمَالٍ، وَمِن تِلكَ الصِّفَةِ كَمَالُهَا[١].

فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى «يُوصَفُ مِن كُلِّ صِفَةِ كَمَالٍ بِأَكمَلِهَا وَأَجَلِّهَا وَأَعلَاهَا، فَيُوصَفُ مِنَ الإِرَادَةِ بِأَكمَلِهَا: وَهُوَ الحِكمَةُ وَحُصُولُ كُلِّ مَا يُرِيدُ بِإِرَادَتِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾﴾ [البروج: ١٦]»[٢].

وَكَذَلِكَ الكَلَامُ يَصِفُ نَفسَهُ مِنهُ بِأَعلَى أَنوَاعِهِ: كَالصِّدقِ وَالعَدلِ وَالحَقِّ، وَكَذَلِكَ الفِعلُ يَصِفُ نَفسَهُ مِنهُ بِأَكمَلِهِ: وَهُوَ العَدلُ وَالحِكمَةُ، وَالمَصلَحَةُ وَالنِّعمَةُ[٣].

فَسُبحَانَ مَن لَهُ الكَمَالُ المُطلَقُ، مِن جَمِيعِ الوُجُوهِ، الَّذِي لَا يَعتَرِيهِ نَقصٌ بِوَجهٍ مِنَ الوُجُوهِ[٤].

---

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (ص٢٦١ - ٢٦٢)، بتصرُّف.
(٢) «تيسير العزيز الحميد» (ص٦٣٧).
(٣) «طريق الهجرتين» (ص٥٧٩).
(٤) «تيسير الكريم الرحمن» (ص٦٢).

وَمِن سَعَةِ غِنَاهُ: أَنَّ خَزَائِنَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرضِ وَالرَّحمَةِ بِيَدِهِ، وَكِلتَا يَدَيهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَمِينٌ مُبَارَكَةٌ، وَالبَرَكَةُ كُلُّهَا لَهُ وَمِنهُ.

عَن أَبِي هُرَيرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وَكِلتَا يَدَي رَبِّي يَمِينٌ مُبَارَكَةٌ**»[١].

وَجُودُهُ عَلَى خَلقِهِ مُتَوَاصِلٌ فِي جَمِيعِ اللَّحَظَاتِ وَالأَوقَاتِ، وَأَنَّ يَدَهُ سَحَّاءُ بِالخَيرِ وَالبَرَكَاتِ اللَّيلَ وَالنَّهَارَ، وَخَيرُهُ عَلَى الخَلقِ مِدرَارٌ.

عَن أَبِي هُرَيرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**إِنَّ يَمِينَ اللهِ مَلأَى لَا يَغِيضُهَا نَفَقَةٌ، سَحَّاءُ اللَّيلَ وَالنَّهَارَ؛ أَرَأَيتُم مَا أَنفَقَ مُنذُ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرضَ؟! فَإِنَّهُ لَم يَنقُص مَا فِي يَمِينِهِ...**»[٢].

قَولُهُ: «**لَا يَغِيضُهَا**» أَي: لَا يُنقِصُهَا. قَالَ اللهُ تَعَالَى:

---

(١) رواه الترمذي (٣٣٦٨)، وصححه الألباني رَحِمَهُ اللهُ في «صحيح سنن الترمذي» (٣/ ٣٨١).
(٢) رواه البخاري (٧٤١٩)، ومسلم (٩٩٣).

﴿وَمَا تَغِيضُ ٱلۡأَرۡحَامُ﴾ [الرعد: ٨].

وَقولُهُ: «**سَحَّاءُ اللَّيلَ وَالنَّهارَ**» أي: دَائِمَةُ الصَّبِّ فِي اللَّيلِ وَالنَّهارِ.

فَلا تَنقُصُ خزَائِنُهُ عَلَى كَثرَةِ عَطَائِهِ وَبَذلِهِ، وَلَا يَغِيضُ مَا فِي يَمِينِهِ سَعَةُ عَطَائِهِ. فَيَدُهُ «مَبسُوطَةٌ لَهُم بِالعَطَاءِ وَالنَّوَالِ، يَمِينُهُ مَلأَى لَا يَغِيضُهَا نَفَقَةٌ، سَحَّاءُ اللَّيلَ وَالنَّهَارَ، وَعَطَاؤُهُ وَخَيرُهُ مَبذُولٌ لِلأَبرَارِ وَالفُجَّارِ»[١] فِي جَمِيعِ الأَوقَاتِ مِدرَارًا. فَسُبحَانَ مَن كُلُّ النِّعَمِ، الَّتِي بِالعِبَادِ، فَمِنهُ. وَتَبَارَكَ مَن لَا يُحصِي أَحَدٌ ثَنَاءً عَلَيهِ، بَل هُوَ كَمَا أَثنَى عَلَى نَفسِهِ. وَتَعَالَى مَن لَا يَخلُو العِبَادُ مِن كَرَمِهِ طَرفَةَ عَينٍ[٢].

فَيَمِينُ اللهِ شَدِيدَةُ الامتِلَاءِ بِالخَيرِ، لَا يُنقِصُهَا نَفَقَةٌ، دَائِمَةُ الصَّبِّ فِي اللَّيلِ وَالنَّهَارِ. وَهَذَا الإِنفَاقُ الهَائِلُ الكَثِيرُ، المُستَمِرُّ الدَّائِمُ بِدُونِ تَوَقُّفٍ، لَم يُنقِص

---

(١) «شفاء العليل» (٢/ ٥٢١).

(٢) «تيسير الكريم الرحمن» (ص٣٠٥).

مَا فِي يَدِهِ تَعَالَى، وَلَا يُحصِيهِ إِلَّا الَّذِي أَعطَاهُ سُبحَانَهُ وَتَعَالَى.

«وَبِذَلِكَ تعلَمُ عِظَمَ افتِرَاءِ الَّذِينَ قَالُوا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحۡنُ أَغۡنِيَآءُ﴾، وَقَد هَدَّدَهُمُ اللهُ عَلَى ذَلِكَ بِقَولِهِ: ﴿سَنَكۡتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتۡلَهُمُ ٱلۡأَنۢبِيَآءَ بِغَيۡرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ١٨١﴾ [آل عمران: ١٨١]»[١].

وَمِن كَمَالِ غِنَاهُ: أَنَّهُ غَنِيٌّ عَنِ العَرشِ وَعَن سَائِرِ المَخلُوقَاتِ، لَا يَفتَقِرُ إِلَى شَيءٍ مِن مَخلُوقَاتِهِ، وَهُوَ مُستَغنٍ عَن كُلِّ شَيءٍ، وَكُلُّ شَيءٍ مُفتَقِرٌ إِلَيهِ. بَلِ العَرشُ مُحتَاجٌ إِلَيهِ، وَحَمَلَتُهُ مُحتَاجُونَ إِلَيهِ. فَهُوَ الغَنِيُّ عَنِ العَرشِ، وَعَن حَمَلَتِهِ، وَعَن كُلِّ مَا سِوَاهُ، وَهُوَ الغَنِيُّ الحَمِيدُ. بَل هُوَ مَعَ استِوَائِهِ عَلَى عَرشِهِ، يَحمِلُ العَرشَ وَحَمَلَةَ العَرشِ بِقُوَّتِهِ وَقُدرَتِهِ، وَلَا يُمَثَّلُ استِوَاءُ اللهِ بِاستِوَاءِ المَخلُوقِينَ.

«فَإِذَا كَانَ العَبدُ فَقِيرًا إِلَى مَا استَوَى عَلَيهِ،

---

(١) «أضواء البيان» (٦/ ٧٠٢).

يَحتَاجُ إِلَى حَملِهِ، وَكَانَ الرَّبُّ ﷻ غَنِيًّا عَن كُلِّ مَا سِوَاهُ، وَالعَرشُ وَمَا سِوَاهُ فَقِيرًا إِلَيهِ، وَهُوَ الَّذِي يَحمِلُ العَرشَ، وَحَمَلَةَ العَرشِ، لَم يَلزَم إِذَا كَانَ الفَقِيرُ مُحتَاجًا إِلَى مَا استَوَى عَلَيهِ، أَن يَكُونَ الغَنِيُّ عَن كُلِّ شَيءٍ، وَكُلُّ شَيءٍ مُحتَاجٌ إِلَيهِ، مُحتَاجًا إِلَى مَا استَوَى عَلَيهِ»(١).

وَقَد خَلَقَ اللهُ العَالَمَ بَعضَهُ فَوقَ بَعضٍ، وَلَم يَجعَل أَعلَاهُ مُفتَقِرًا إِلَى أَسفَلِهِ. فَإِنَّ السَّمَاوَاتِ فَوقَ الأَرضِ وَلَيسَتِ الأَرضُ حَامِلَةَ السَّمَاوَاتِ، وَكُلُّ سَمَاءٍ فَوقَهَا سَمَاءٌ، وَلَيسَتِ السُّفلَى حَامِلَةً لِلعُليَا، وَكَذَلِكَ السَّمَاوَاتُ فَوقَ السَّحَابِ وَالهَوَاءِ وَالأَرضِ، وَلَيسَت مُحتَاجَةً إِلَى ذَلِكَ، وَكَذَلِكَ العَرشُ فَوقَ السَّمَاوَاتِ وَلَيسَ مُحتَاجًا إِلَيهَا، فَالهَوَاءُ فَوقَ الأَرضِ، وَلَيسَ مُفتَقِرًا إِلَى أَن تَحمِلَهُ الأَرضُ، وَالسَّحَابُ أَيضًا فَوقَ الأَرضِ، وَلَيسَ مُفتَقِرًا إِلَى أَن تَحمِلَهُ، وَكَذَلِكَ المَلَائِكَةُ عَالُونَ عَلَى الأَرضِ وَلَيسُوا مُفتَقِرِينَ إِلَيهَا.

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١٩/ ١٤٠-١٤١).

فَإِذَا كَانَ المَخلُوقُ العَالِي لَا يَجِبُ أَن يَكُونَ مُفتَقِرًا إِلَى السَّافِلِ، فَالعَلِيُّ الأَعلَى، الخَالِقُ لِكُلِّ شَيءٍ، رَبُّ كُلِّ شَيءٍ وَمَلِيكُهُ، الغَنِيُّ عَن كُلِّ شَيءٍ، إِذَا كَانَ فَوقَ جَمِيعِ خَلقِهِ: أَولَى أَن لَا يَكُونَ مُفتَقِرًا إِلَى المَخلُوقَاتِ، مَعَ عُلُوِّهِ عَلَيهَا. وَأَجَلُّ وَأَعظَمُ، وَأَغنَى وَأَعلَى مِن أَن يَفتَقِرَ إِلَى شَيءٍ: بِحَملٍ أَو غَيرِ حَملٍ، بَل هُوَ الأَحَدُ الصَّمَدُ؛ الَّذِي لَم يَلِد وَلَم يُولَد، وَلَم يَكُن لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ، الَّذِي كُلُّ مَا سِوَاهُ مُفتَقِرٌ إِلَيهِ، وَهُوَ مُستَغنٍ عَن كُلِّ مَا سِوَاهُ.

وَبِذَلِكَ تَعلَمُ عِظَمَ افتِرَاءِ الَّذِينَ قَالُوا: لَو كَانَ الخَالِقُ فَوقَ العَرشِ، لَكَانَ حَامِلُ العَرشِ حَامِلًا لِمَن فَوقَ العَرشِ، فَيَلزَمُ احتِيَاجُ الخَالِقِ إِلَى المَخلُوقِ. يَفتَرُونَ عَلَى اللهِ الكَذِبَ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ ﴿١١٦﴾﴾ [النحل: ١١٦]، ﴿وَقَدۡ خَابَ مَنِ ٱفۡتَرَىٰ ﴿٦١﴾﴾ [طه: ٦١].

وَمِن كَمَالِ غِنَاهُ: أَنَّهُ لَم يَتَّخِذ صَاحِبَةً وَلَا

وَلَدًا، وَلَا شَرِيكًا فِي المُلكِ، وَلَا وَلِيًّا مِنَ الذُّلِّ، فَهُوَ الغَنِيُّ الَّذِي كَمُلَ بِنُعُوتِهِ وَأَوصَافِهِ، المُغنِي لِجَمِيعِ مَخلُوقَاتِهِ[1].

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۖ هُوَ ٱلۡغَنِيُّۖ﴾ [يونس: ٦٨].

أَي: الغِنَى مُنحَصِرٌ فِيهِ، وَأَنوَاعُ الغِنَى مُستَغرِقَةٌ فِيهِ، فَهُوَ الغَنِيُّ، الَّذِي لَهُ الغِنَى التَّامُّ: بِكُلِّ وَجهٍ وَاعتِبَارٍ، مِن جَمِيعِ الوُجُوهِ، فَإِذَا كَانَ غَنِيًّا مِن كُلِّ وَجهٍ، فَلِأَيِّ شَيءٍ يَتَّخِذُ الوَلَدَ؟!

أَلِحَاجَةٍ مِنهُ إِلَى الوَلَدِ؟! فَهَذَا مُنَافٍ لِغِنَاهُ، فَلَا يَتَّخِذُ أَحَدٌ وَلَدًا، إِلَّا لِنَقصٍ فِي غِنَاهُ[2].

وَبِذَلِكَ تَعلَمُ عِظَمَ افتِرَاءِ الَّذِينَ جَعَلُوا للهِ وَلَدًا: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗا (٨٨) لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدّٗا (٨٩) تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ

(١) «المجموعة الكاملة» (٣/ ٢٣٥ - ٢٣٦).
(٢) «تيسير الكريم الرحمن» (ص٥٠١).

وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا (٩٠) أَن دَعَوۡاْ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٗا (٩١) وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا (٩٢)﴾ [مريم: ٨٨ - ٩٢].

وَمِن كَمَالِ غِنَاهُ: أَنَّهُ يَأمُرُ عِبَادَهُ بِدُعَائِهِ، وَيَعِدُهُم بِإِجَابَةِ دَعَوَاتِهِم وَإِسعَافِهِم بِجَمِيعِ مُرَادَاتِهِم، وَيُؤتِيهِم مِن فَضلِهِ مَا سَأَلُوهُ وَمَا لَم يَسأَلُوهُ. فَأَعطَاهُم مَا أَعطَاهُم، وَمَنَحَهُم مَا مَنَحَهُم، بِمُجَرَّدِ فَضلِهِ العَظِيمِ، وَكَرَمِهِ الجَسِيمِ.

بَل إِنَّهُ سُبحَانَهُ يَنزِلُ بِنَفسِهِ «كُلَّ لَيلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنيَا حِينَ يَبقَى ثُلُثُ اللَّيلِ الآخِرُ، وَيَسأَلُ عَن عِبَادِهِ وَيَستَعرِضُ حَوَائِجَهُم بِنَفسِهِ، وَيَدعُوهُم إِلى سُؤَالِهِ، فَيَدعُو مُسِيئَهُم إِلَى التَّوبَةِ، وَمَرِيضَهُم إِلَى أَن يَسأَلَهُ أَن يَشفِيَهُ، وَفَقِيرَهُم إِلَى أَن يَسأَلَهُ غِنَاهُ، وَذَا حَاجَتِهِم يَسأَلُهُ قَضَاءَهَا كُلَّ لَيلَةٍ»[1]. فَتَبَارَكَ الكَرِيمُ الوَهَّابُ.

عَن أَبِي هُرَيرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:

(١) «طريق الهجرتين» (ص٥٥٩).

«يَنزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنيَا، حِينَ يَبقَى ثُلُثُ اللَّيلِ الآخِرُ، فَيَقُولُ: مَن يَدعُونِي فَأَستَجِيبَ لَهُ؟ مَن يَسأَلُنِي فَأُعطِيَهُ؟ مَن يَستَغفِرُنِي فَأَغفِرَ لَهُ؟»[١].

فَكَيفَ يُسأَلُ الفَقِيرُ بِالذَّاتِ، «الضَّعِيفُ بِالذَّاتِ، وَالعَاجِزُ بِالذَّاتِ، المُحتَاجُ بِالذَّاتِ، الَّذِي لَيسَ لَهُ مِن ذَاتِهِ إِلَّا العَدَمُ»[٢]، وَيُترَكُ «الغَنِيُّ بِالذَّاتِ، القَادِرُ بِالذَّاتِ، الَّذِي غِنَاهُ وَقُدرَتُهُ، وَمُلكُهُ وَجُودُهُ، وَإِحسَانُهُ وَعِلمُهُ، وَرَحمَتُهُ وَكَمَالُهُ المُطلَقُ: مِن لَوَازِمِ ذَاتِهِ؟!»[٣]. **إِنَّ هَذَا لَأَعجَبُ العَجَبِ!**

وَمِن كَمَالِ غِنَاهُ: أَنَّهُ لَوِ اجتَمَعَ أَوَّلُ الخَلقِ وَآخِرُهُم فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُوهُ، فَأَعطَى كُلًّا مِنهُم مَا سَأَلَهُ، مَا نَقَصَ مِن مُلكِهِ مِثقَالُ ذَرَّةٍ.

---

(١) رواه البخاري (١١٤٥ و٦٣٢١ و٧٤٩٤)، ومسلم (٧٥٨)، وهو حديث متواتر.

(٢) «الداء والدواء» (ص٢٠٣).

(٣) «الداء والدواء» (ص٢٠٣).

عَن أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللهُ عَنهُ: عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ - فِيمَا رَوَى عَنِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى - أَنَّهُ قَالَ: **«يَا عِبَادِي! لَو أَنَّ أَوَّلَكُم وَآخِرَكُم، وَإِنسَكُم وَجِنَّكُم، قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي، فَأَعطَيتُ كُلَّ إِنسَانٍ مَسأَلَتَهُ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِندِي، إِلَّا كَمَا يَنقُصُ المِخيَطُ إِذَا أُدخِلَ البَحرَ»**[١].

انظُر إِلَى هَذَا الكَرَمِ الفَيَّاضِ. فَعَطَاؤُهُ الجَمُّ: لَا يَنقُصُ بِكَثرَةِ العَطَايَا، وَإِن بَلَغَت أَبلَغَ المَبلَغِ، وَوَصَلَت إِلَى حَدٍّ يَقصُرُ عَنهُ الوَصفُ، وَيَضِيقُ الذِّهنُ عَن تَصَوُّرِهِ، وَتَقصُرُ العُقُولُ عَن إِدرَاكِهِ. فَإِنَّ «مَا عِندَهُ لَا يَنقُصُ البَتَّةَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ﴾ [النحل: ٩٦]، فَإِنَّ البَحرَ إِذَا غُمِسَ فِيهِ إِبرَةٌ، ثُمَّ أُخرِجَت، لَم يَنقُص مِنَ البَحرِ بِذَلِكَ شَيءٌ، وَكَذَلِكَ لَو فُرِضَ أَنَّهُ شَرِبَ مِنهُ عُصفُورٌ مَثَلًا، فَإِنَّهُ لَا يَنقُصُ البَحرُ البَتَّةَ»[٢]. فَنِسبَةُ «مَا يَسأَلُونَهُ كُلُّهُم إِيَّاهُ فَيُعطِيهِم:

---

(١) رواه مسلم (٢٥٧٧).

(٢) «جامع العلوم والحكم» (٢/ ٤٩).

إِلَى مَا عِندَهُ، كَلَا نِسبَةٍ»[١]. وَهَذَا مِن أَحسَنِ الأَمثَالِ، وَأَبلَغِهَا، وَأَعظَمِهَا تَقرِيبًا إِلَى الأَفهَامِ.

وَمِن كَمَالِ غِنَاهُ: مَا أَعَدَّهُ لِأَولِيَائِهِ فِي دَارِ النَّعِيمِ مِمَّا لَا عَينٌ رَأَت، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَت وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلبِ بَشَرٍ[٢]؛ مِن أَنوَاعِ المَآكِلِ، وَالمَشَارِبِ اللَّذِيذَةِ، وَالمَنَاظِرِ العَجِيبَةِ، وَالأَزوَاجِ الحَسَنَةِ، وَالقُصُورِ وَالغُرَفِ المُزَخرَفَةِ، وَالأَشجَارِ المُتَدَلِّيَةِ، وَالفَوَاكِهِ المُستَغرَبَةِ وَالأَصوَاتِ الشَّجِيَّةِ، وَالنِّعَمِ السَّابِغَةِ[٣]. فَهِيَ الجَامِعَةُ لِجَمِيعِ أَنوَاعِ الأَفرَاحِ وَالمَسَرَّاتِ، الخَالِيَةُ مِن جَمِيعِ المُنَكِّدَاتِ وَالمُنَغِّصَاتِ[٤].

عَنِ المُغِيرَةِ بنِ شُعبَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**سَأَلَ مُوسَى** عليه السلام **رَبَّهُ: مَا أَدنَى أَهلِ الجَنَّةِ مَنزِلَةً؟ قَالَ: هُوَ رَجُلٌ يَجِيءُ بَعدَ مَا أُدخِلَ أَهلُ**

(١) «مفتاح دار السعادة» (٢/ ٥١٢).
(٢) «المجموعة الكاملة» (٣/ ٢٤٧).
(٣) «تيسير الكريم الرحمن» (ص٢٥٧).
(٤) «تهذيب المدارج» (ص٩٧٠).

الجَنَّةِ الجَنَّةَ، فَيُقَالُ لهُ: ادخُلِ الجَنَّةَ. فَيَقُولُ: أَي رَبِّ! كَيفَ؟ وَقَد نَزَلَ النَّاسُ مَنَازِلَهُم، وَأَخَذُوا أَخَذَاتِهِم؟ فَيُقَالُ لَهُ: أَتَرضَى أَن يَكُونَ لَكَ مِثلُ مُلكِ مَلِكٍ مِن مُلُوكِ الدُّنيَا؟ فَيَقُولُ: رَضِيتُ، رَبِّ! فَيَقُولُ: لَكَ ذَلِكَ، وَمِثلُهُ، وَمِثلُهُ، وَمِثلُهُ، وَمِثلُهُ. فَقَالَ فِي الخَامِسَةِ: رَضِيتُ، رَبِّ! فَيَقُولُ: هَذَا لَكَ وَعَشَرَةُ أَمثَالِهِ، وَلَكَ مَا اشتَهَت نَفسُكَ، وَلَذَّت عَينُكَ، فَيَقُولُ: رَضِيتُ، رَبِّ! قَالَ: رَبِّ فَأَعلَاهُم مَنزِلَةً؟ قَالَ: أُولَئِكَ الَّذِينَ أَرَدتُ، غَرَستُ كَرَامَتَهُم بِيَدِي، وَخَتَمتُ عَلَيهَا، فَلَم تَرَ عَينٌ، وَلَم تَسمَع أُذُنٌ، وَلَم يَخطُر عَلَى قَلبِ بَشَرٍ» قَالَ: وَمِصدَاقُهُ فِي كِتَابِ اللَّهِ عز وجل: ﴿فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ﴾ [السجدة: ١٧][١]. وَهَذَا قَطرَةٌ مِن بَحرِ غِنَاهُ.

عَنِ المُستَورِدِ بنِ شَدَّادٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**وَاللَّهِ مَا الدُّنيَا فِي الآخِرَةِ، إِلَّا مِثلُ مَا يَجعَلُ أَحَدُكُم إِصبَعَهُ هَذِهِ** (أَي: السَّبَّابَةَ) **فِي اليَمِّ،**

(١) رواه مسلم (١٨٩).

فَليَنظُر بِمَ تَرجِعُ؟!»(١).

فَشَبَّهَ نَعِيمَ الدُّنيَا بِحَذَافِيرِهِ، فِي جَنبِ نَعِيمِ الآخِرَةِ: بِمَا يَعلَقُ عَلَى الإِصبَعِ مِنَ البَلَلِ، حِينَ تُغمَسُ فِي البَحرِ.

وَمِن كَمَالِ غِنَاهُ: أَنَّهُ لَا يَقبَلُ مِنَ العَمَلِ، إِلَّا مَا كَانَ خَالِصًا لِوَجهِهِ.

عَن أَبِي هُرَيرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَنَا أَغنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّركِ، مَن عَمِلَ عَمَلًا أَشرَكَ فِيهِ مَعِيَ غَيرِي، تَرَكتُهُ وَشِركَهُ»**(٢).

لَمَّا كَانَ المُرَائِي قَاصِدًا بِعَمَلِهِ اللهَ تَعَالَى وَغَيرَهُ، كَانَ قَد جَعَلَ اللهَ تَعَالَى شَرِيكًا، فَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ، فَاللهُ تَعَالَى هُوَ الغَنِيُّ عَلَى الإِطلَاقِ، وَالشُّرَكَاءُ بَل جَمِيعُ الخَلقِ فُقَرَاءُ إِلَيهِ بِكُلِّ اعتِبَارٍ، فَلَا

(١) رواه مسلم (٢٨٥٨).
(٢) رواه مسلم (٢٩٨٥).

يَلِيقُ بِكَرَمِهِ وَغِنَاهُ التَّامِّ: أَن يَقبَلَ العَمَلَ الَّذِي جُعِلَ لَهُ فِيهِ شَرِيكٌ، فَإِنَّ كَمَالَهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَكَرَمَهُ وَغِنَاهُ: يُوجِبُ أَن لَا يَقبَلَ ذَلِكَ(١).

عَن أَبِي أُمَامَةَ البَاهِلِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنهُ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: أَرَأَيتَ رَجُلًا غَزَا يَلتَمِسُ الأَجرَ وَالذِّكرَ، مَا لَهُ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«لَا شَيءَ لَهُ»** فَأَعَادَهَا ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، يَقُولُ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«لَا شَيءَ لَهُ»** ثُمَّ قَالَ: **«إِنَّ اللهَ لَا يَقبَلُ مِنَ العَمَلِ، إِلَّا مَا كَانَ لَهُ خَالِصًا، وَابتُغِيَ بِهِ وَجهُهُ»**(٢).

وَمِن كَمَالِ غِنَاهُ: أَنَّهُ مَالِكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرضِ وَمَا فِيهِمَا وَمَا بَينَهُمَا، لَا شَرِيكَ لَهُ فِي شَيءٍ مِن ذَلِكَ. قَالَ تَعَالَى: ﴿لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ٦٤﴾

(١) «تيسير العزيز الحميد» (ص٥٢٧).
(٢) رواه النسائي (٣١٤٠)، وقال الألباني رحمه الله في «صحيح سنن النسائي» (٢/ ٣٨٤): «حسن صحيح».

[الحج: ٦٤]، ﴿لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ٢٦﴾ [لقمان: ٢٦].

وَمِن كَمَالِ غِنَاهُ: أَنَّهُ «غَنِيٌّ كَرِيمٌ، عَزِيزٌ رَحِيمٌ، فَهُوَ مُحسِنٌ إِلَى عَبدِهِ مَعَ غِنَاهُ عَنهُ، يُرِيدُ بِهِ الخَيرَ، وَيَكشِفُ عَنهُ الضُّرَّ، لَا لِجَلبِ مَنفَعَةٍ إِلَيهِ مِنَ العَبدِ، وَلَا لِدَفعِ مَضَرَّةٍ؛ بَل رَحمَةً مِنهُ وَإِحسَانًا، فَهُوَ سُبحَانَهُ لَم يَخلُق خَلقَهُ لِيَتَكَثَّرَ بِهِم مِن قِلَّةٍ، وَلَا لِيَعتَزَّ بِهِم مِن ذِلَّةٍ، وَلَا لِيَرزُقُوهُ وَلَا لِيَنفَعُوهُ، وَلَا لِيُدَافِعُوا عَنهُ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ٥٦ مَآ أُرِيدُ مِنۡهُم مِّن رِّزۡقٖ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطۡعِمُونِ ٥٧ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ ٥٨﴾ [الذاريات: ٥٦ - ٥٨]»(١).

فَلَا تَنفَعُهُ طَاعَةُ الطَّائِعِينَ، كَمَا لَا تَضُرُّهُ مَعصِيَةُ العَاصِينَ.

عَن أَبِي ذَرٍّ رضي الله عنه: عَنِ النَّبِيِّ ﷺ - فِيمَا رَوَى

(١) «موارد الأمان» (ص٩٠).

عَنِ اللهِ تبارك وتعالى - أَنَّهُ قَالَ: «**يَا عِبَادِي! إِنَّكُم لَن تَبلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي، وَلَن تَبلُغُوا نَفعِي فَتَنفَعُونِي. يَا عِبَادِي! لَو أَنَّ أَوَّلَكُم وَآخِرَكُم، وَإِنسَكُم وَجِنَّكُم، كَانُوا عَلَى أَتقَى قَلبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنكُم، مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلكِي شَيئًا. يَا عِبَادِي! لَو أَنَّ أَوَّلَكُم وَآخِرَكُم، وَإِنسَكُم وَجِنَّكُم، كَانُوا عَلَى أَفجَرِ قَلبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنكُم، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِن مُلكِي شَيئًا**»(١).

يَعنِي: أَنَّ العِبَادَ لَا يَقدِرُونَ أَن يُوصِلُوا إِلَى اللهِ نَفعًا وَلَا ضَرًّا، وَلَن يَبلُغُوا ذَلِكَ، فَهُوَ سُبحَانَهُ الغَنِيُّ الحَمِيدُ؛ فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى فِي نَفسِهِ غَنِيٌّ حَمِيدٌ، لَا يَتَزَيَّنُ بِطَاعَةِ عِبَادِهِ، وَلَا تَشِينُهُ مَعَاصِيهِم؛ «فَلَا حَاجَةَ لَهُ بِطَاعَاتِ العِبَادِ، وَلَا يَعُودُ نَفعُهَا إِلَيهِ، وَإِنَّمَا هُم يَنتَفِعُونَ بِهَا، وَلَا يَتَضَرَّرُ بِمَعَاصِيهِم، وَإِنَّمَا هُم يَتَضَرَّرُونَ بِهَا، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِۚ إِنَّهُمۡ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗاۗ﴾ [آل عمران:

(١) رواه مسلم (٢٥٧٧).

١٧٦]. وَقَالَ: ﴿وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ [آل عمران: ١٤٤]. وَقَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾﴾ [النساء: ١٣١]، وَقَالَ حَاكِيًا عَن مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾﴾ [إبراهيم: ٨]، وَقَالَ: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾﴾ [آل عمران: ٩٧]»(١).

فَعِبَادَةُ «العَابِدِينَ، وَتَقوَى المُتَّقِينَ، وَزُهدُ الزَّاهِدِينَ، إِنَّمَا يَنتَفِعُ بِهَا فَاعِلُهَا فَقَط؛ وَمَعصِيَةُ العَاصِينَ، وَتَهَتُّكُ المُتَهَتِّكِينَ، وَكُفرُ الكَافِرِينَ، وَنِفَاقُ المُنَافِقِينَ، إِنَّمَا تَضُرُّ فَاعِلَهَا، وَلَيسَ إِلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَلَا عَلَيهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مِن ذَلِكَ شَيءٌ»(٢). قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ ۚ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٦﴾﴾ [التغابن: ٦]. وَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾

(١) «جامع العلوم والحكم» (٢/ ٤٣).
(٢) «نثر الجوهر على حديث أبي ذر» (ص١٦٥).

[النمل: ٤٠]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾﴾ [لقمان: ١٢]، غَنِيٌّ عَن أَعمَالِهِ، «غَنِيٌّ عَن شُكرِهِ غَيرُ مُحتَاجٍ إِلَيهِ، حَمِيدٌ مُستَحِقٌّ لِلحَمدِ مِن خَلقِهِ، لِإِنعَامِهِ عَلَيهِم بِنِعَمِهِ الَّتِي لَا يُحَاطُ بِقَدرِهَا، وَلَا يُحصَرُ عَدَدُهَا، وَإِن لَم يَحمَدهُ أَحَدٌ مِن خَلقِهِ، فَإِنَّ كُلَّ مَوجُودٍ نَاطِقٌ بِحَمدِهِ بِلِسَانِ الحَالِ»(١).

وَمِن كَمَالِ غِنَاهُ: أَنَّهُ أَغنَى عِبَادَهُ بِمَا بَسَطَ لَهُم مِنَ الأَرزَاقِ، وَبِمَا أَدَرَّهُ عَلَيهِم مِنَ الخَيرَاتِ، وَأَنزَلَهُ مِنَ البَرَكَاتِ، وَمَا تَابَعَ عَلَيهِم مِنَ النِّعَمِ الَّتِي لَا تُعَدُّ وَلَا تُحصَى، وَبِمَا يَسَّرَهُ مِنَ الأَسبَابِ المُوصِلَةِ إِلَى الغِنَى.

وَمِن كَمَالِ غِنَاهُ: أَنَّ الخَلَائِقَ بِأَسرِهَا لَا تَستَغنِي عَنهُ طَرفَةَ عَينٍ فِي حَالٍ مِن أَحوَالِهَا، فَهُم فُقَرَاءُ إِلَى اللهِ عَلَى الإِطلَاقِ فِي كُلِّ شَيءٍ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾ [محمد: ٣٨]؛ وَاللهُ هُوَ

(١) «فتح القدير» (٤/ ٣٣٨).

الغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الفُقَرَاءُ، تحتاجُونَ إِلَيهِ فِي جَمِيعِ أَوقَاتِكُم، لِجَمِيعِ أُمُورِكُم. وَهُوَ الكَامِلُ مِن كُلِّ الوُجُوهِ، وَالعَبِيدُ نَاقِصُونَ مِن جَمِيعِ الوُجُوهِ، وَاللهُ هُوَ النَّافِعُ الضَّارُّ، وَالمَخلُوقُ لَيسَ لَهُ مِنَ النَّفعِ وَالضَّرِّ وَالأَمرِ شَيءٌ.

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ١٥﴾ [فاطر: ١٥]. بَيَّنَ سُبحَانَهُ فِي هَذِهِ الآيَةِ أَنَّ فَقرَ العِبَادِ إِلَيهِ أَمرٌ ذَاتِيٌّ لَهُم لَا يَنفَكُّ عَنهُم «وَتَعرِيفُ الفُقَرَاءِ لِلمُبَالَغَةِ فِي فَقرِهِم، كَأَنَّهُم لِشِدَّةِ افتِقَارِهِم وَكَثرَةِ احتِيَاجِهِم هُمُ الفُقَرَاءُ»(1) فَقرًا كَامِلًا.

فَهُم فُقَرَاءُ إِلَيهِ فِي الخَلقِ وَالإِيجَادِ، فَلَولَا إِيجَادُهُ إِيَّاهُم، لَم يُوجَدُوا. قَالَ ﷻ: ﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا ١ إِنَّا خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٍ أَمۡشَاجٖ نَّبۡتَلِيهِ فَجَعَلۡنَٰهُ سَمِيعَۢا بَصِيرًا ٢﴾ [الإنسان: ١- ٢].

(١) «فتح البيان» (١١/ ٢٣٦).

وَفُقَرَاءُ إِلَيهِ فِي إِعدَادِهِم بِالقُوَى وَالأَعضَاءِ وَالجَوَارِحِ، الَّتِي لَولَا إِعدَادُهُ إِيَّاهُم، لَمَا استَعَدُّوا لِأَيِّ عَمَلٍ.

فُقَرَاءُ فِي إِمدَادِهِم بِالأَقوَاتِ وَالأَرزَاقِ، وَالنِّعَمِ الظَّاهِرَةِ وَالبَاطِنَةِ. فَلَولَا فَضلُهُ وَإِحسَانُهُ وَتَيسِيرُهُ الأُمُورَ، لَمَا حَصَلَ لَهُم مِنَ الرِّزقِ وَالنِّعَمِ شَيءٌ.

فُقَرَاءُ إِلَيهِ فِي تَربِيَتِهِم بِأَنوَاعِ التَّربِيَةِ، وَأَجنَاسِ التَّدبِيرِ؛ التَّربِيَةِ العَامَّةِ، وَالخَاصَّةِ.

«وَمَعنَى تَربِيَةِ اللهِ العَامَّةِ: الخَلقُ وَالتَّدبِيرُ وَإِيصَالُ مَا بِهِ تَستَقِيمُ الأَبدَانُ.

وَالتَّربِيَةُ الخَاصَّةُ لِخِيَارِ خَلقِهِ، الَّذِينَ رَبَّاهُم بِلُطفِهِ، وَأَصلَحَ لَهُم دِينَهُم وَدُنيَاهُم، وَتَوَلَّاهُم فَأَخرَجَهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ، وَهَذَا مُتَضَمِّنٌ لِافتِقَارِهِم إِلَى رَبِّهِم، وَأَنَّهُم لَا يَقدِرُونَ عَلَى تَربِيَةِ نُفُوسِهِم مِن كُلِّ وَجهٍ، فَلَيسَ لَهُم غَيرُ رَبِّهِم يَتَوَلَّاهُم

وَيُصلِحُ أُمُورَهُم»(١).

«فُقَرَاءُ إِلَيهِ فِي صَرفِ النِّقَمِ عَنهُم، وَدَفعِ المَكَارِهِ، وَإِزَالَةِ الكُرُوبِ وَالشَّدَائِدِ. فَلَولَا دَفعُهُ عَنهُم، وَتَفرِيجُهُ لِكُرُبَاتِهِم، وَإِزَالَتُهُ لِعُسرِهِم، لَاستَمَرَّت عَلَيهِمُ المَكَارِهُ وَالشَّدَائِدُ»(٢).

«وَالعَبدُ لَا شُعُورَ لَهُ بِأَكثَرِهَا أَصلًا، وَاللهُ سُبحَانَهُ يَكلَؤُهُ مِنهَا بِاللَّيلِ وَالنَّهَارِ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿**قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ**﴾ [الأنبياء: ٤٢]»(٣).

«فَهُوَ سُبحَانَهُ مُنعِمٌ عَلَيهِم: بِكَلَاءَتِهِم وَحِفظِهِم وَحِرَاسَتِهِم، مِمَّا يُؤذِيهِم بِاللَّيلِ وَالنَّهَارِ وَحدَهُ، لَا حَافِظَ لَهُم غَيرُهُ. هَذَا مَعَ غِنَاهُ التَّامِّ عَنهُم، وَفَقرِهِمُ

(١) «المجموعة الكاملة» (٥/ ٤١).
(٢) «تيسير الكريم الرحمن» (ص٩٦١).
(٣) «طريق الهجرتين» (ص٥٥٦).

التَّامِّ إِلَيهِ مِن كُلِّ وَجهٍ»(١).

فُقَرَاءُ إِلَيهِ فِي تَعلِيمِهِم مَا لَا يَعلَمُونَ، وَعَمَلِهِم بِمَا يُصلِحُهُم: فَلَولَا تَعلِيمُهُ، لَم يَتَعَلَّمُوا، وَلَولَا تَوفِيقُهُ، لَم يَصلُحُوا.

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾ [العلق: ٥].

فَإِنَّ الإِنسَانَ «قَبلَ التَّعلِيمِ جَاهِلٌ لَا يَعلَمُ شَيئًا، كَمَا قَالَ ﷻ: ﴿**وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا**﴾ [النحل: ٧٨]»(٢).

فُقَرَاءُ إِلَيهِ فِي هِدَايَتِهِم إِلَى الصِّرَاطِ المُستَقِيمِ، وَلَولَا هِدَايَتُهُ لَهُم لَمَا اهتَدَوا.

عَن أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللهُ عَنهُ: عَنِ النَّبِيِّ ﷺ - فِيمَا رَوَى عَنِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى - أَنَّهُ قَالَ: «**يَا عِبَادِي كُلُّكُم ضَالٌّ إِلَّا مَن**

(١) «طريق الهجرتين» (ص٥٧٠) [دار طيبة الخضراء - مكة المكرمة].
(٢) «جامع العلوم والحكم» (٢/ ٣٩).

هَدَيتُهُ، فَاستَهدُونِي أَهدِكُم»(١).

أَي: اطلُبُوا مِنِّي الهِدَايَةَ، أُوَفِّقكُم إِلَى سُلُوكِ طَرِيقِهَا.

وَالهِدَايَةُ إِلَى الصِّرَاطِ المُستَقِيمِ: أَجَلُّ مَطلُوبٍ، وَأَعظَمُ مَسؤُولٍ، وَنَيلُهُ: أَشرَفُ المَوَاهِبِ. «الَّذِي مَضمُونُهُ مَعرِفَةُ الحَقِّ، وَالعَمَلُ بِهِ، وَالثَّبَاتُ عَلَيهِ، وَالدَّعوَةُ إِلَيهِ، وَالصَّبرُ عَلَى أَذَى المَدعُوِّ؛ فَبِاستِكمَالِ هَذِهِ المَرَاتِبِ الخَمسِ، تُستَكمَلُ الهِدَايَةُ، وَمَا نَقَصَ مِنهَا، نَقَصَ مِن هِدَايَتِهِ»(٢).

فَفَقرُ العَبدِ وَحَاجَتُهُ «إِلَى هَذِهِ الهِدَايَةِ ضَرُورِيَّةٌ فِي سَعَادَتِهِ وَنَجَاتِهِ، بِخِلَافِ الحَاجَةِ إِلَى الرِّزقِ وَالنَّصرِ، فَإِنَّ اللهَ يَرزُقُهُ، فَإِذَا انقَطَعَ رِزقُهُ مَاتَ، وَالمَوتُ لَا بُدَّ مِنهُ؛ فَإِن كَانَ مِن أَهلِ الهِدَايَةِ، كَانَ سَعِيدًا بَعدَ المَوتِ، وَكَانَ المَوتُ مُوصِلًا لَهُ إِلَى السَّعَادَةِ الدَّائِمَةِ الأَبَدِيَّةِ، فَيَكُونُ رَحمَةً فِي حَقِّهِ.

---

(١) رواه مسلم (٢٥٧٧).

(٢) «كشف الغطاء في حكم سماع الغناء» (ص١٢٦).

وَكَذَلِكَ النَّصرُ إِذَا قُدِّرَ أَنَّهُ قُهِرَ وَغُلِبَ حَتَّى قُتِلَ، فَإِذَا كَانَ مِن أَهلِ الهِدَايَةِ وَالاستِقَامَةِ مَاتَ شَهِيدًا، وَكَانَ القَتلُ مِن تَمَامِ نِعمَةِ اللهِ عَلَيهِ.

فَتَبَيَّنَ أَنَّ حَاجَةَ العِبَادِ إِلَى الهُدَى، أَعظَمُ مِن حَاجَتِهِم إِلَى الرِّزقِ وَالنَّصرِ، بَل لَا نِسبَةَ بَينَهُمَا»(١).

فُقَرَاءُ إِلَيهِ مِن جِهَةِ عَفوِهِ عَنهُم وَمَغفِرَتِهِ لَهُم، ذَلِكَ بِأَنَّ «الإِنسَانَ يُذنِبُ دَائِمًا فَهُوَ فَقِيرٌ مُذنِبٌ، وَرَبُّهُ تَعَالَى يَرحَمُهُ وَيَغفِرُ لَهُ، وَهُوَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ، فَلَولَا رَحمَتُهُ وَإِحسَانُهُ: لَمَا وُجِدَ خَيرٌ أَصلًا، لَا فِي الدُّنيَا وَلَا فِي الآخِرَةِ، وَلَولَا مَغفِرَتُهُ لَمَا وُقِيَ العَبدُ شَرَّ ذُنُوبِهِ، وَهُوَ مُحتَاجٌ دَائِمًا إِلَى حُصُولِ النِّعمَةِ، وَدَفعِ الضُّرِّ وَالشَّرِّ، وَلَا تَحصُلُ النِّعمَةُ إِلَّا بِرَحمَتِهِ، وَلَا يَندَفِعُ الشَّرُّ إِلَّا بِمَغفِرَتِهِ، فَإِنَّهُ لَا سَبَبَ لِلشَّرِّ إِلَّا ذُنُوبُ العِبَادِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿**مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ**﴾ [النساء: ٧٩]؛ وَالمُرَادُ

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٢٢/ ٤٠١ - ٤٠٢).

بِالسَّيِّئَاتِ: مَا يَسُوءُ العَبدَ مِنَ المَصَائِبِ، وَبِالحَسَنَاتِ: مَا يَسُرُّهُ مِنَ النِّعَمِ، كَمَا قَالَ: ﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾﴾ [الأعراف: ١٦٨]؛ فَالنِّعَمُ وَالرَّحمَةُ، وَالخَيرُ كُلُّهُ مِنَ اللهِ فَضلًا وَجُودًا، مِن غَيرِ أَن يَكُونَ لِأَحَدٍ مِن جِهَةِ نَفسِهِ عَلَيهِ حَقٌّ.

وَالمَصَائِبُ: بِسَبَبِ ذُنُوبِ العِبَادِ وَكَسبِهِم، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾﴾ [الشورى: ٣٠]»[1]؛ فَإِن لَم يَعفُ عَنِ العَبدِ وَيَغفِر لَهُ، فَلَا سَبِيلَ لَهُ إِلَى النَّجَاةِ.

وَلِهَذَا عَلَّمَ النَّبِيُّ ﷺ الصِّدِّيقَ رضي الله عنه أَن يَقُولَ: «**اللَّهُمَّ إِنِّي ظَلَمتُ نَفسِي ظُلمًا كَثِيرًا، وَلَا يَغفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنتَ، فَاغفِر لِي مَغفِرَةً مِن عِندِكَ، وَارحَمنِي إِنَّكَ أَنتَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ**»[2].

«فَأَخبَرَ عَن ظُلمِهِ لِنَفسِهِ، وَوَصَفَهُ بِالكَثرَةِ

(١) «مجموع الفتاوى» (١/ ٤٢).
(٢) رواه البخاري (٨٣٤)، ومسلم (٢٧٠٥).

المُقتَضِيَةِ لِتَعَدُّدِهِ وَتَكَثُّرِهِ، ثُمَّ قَالَ: «**فَاغفِر لِي مَغفِرَةً مِن عِندِكَ**» أَي: لَا يَنَالُهَا عَمَلِي وَلَا سَعيِي، بَل عَمَلِي يَقصُرُ عَنهَا، وَإِنَّمَا هِيَ مِن فَضلِكَ وَإِحسَانِكَ، لَا بِكَسبِي وَلَا بِاستِغفَارِي وَتَوبَتِي»[1]، وَإِنَّمَا هِيَ مِن عِندِكَ. وَمَا كَانَ مِن عِندِ اللهِ لَا يُحِيطُ بِهِ وَصفُ وَاصِفٍ، كَمَا فِي قَولِهِ: ﴿ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾﴾ [الكهف: ٦٥].

«ثُمَّ قَالَ: «**وَارحَمنِي**» أَي: لَيسَ مُعَوَّلِي إِلَّا عَلَى مُجَرَّدِ رَحمَتِكَ، فَإِن رَحِمتَنِي وَإِلَّا فَالهَلَاكُ لَازِمٌ لِي.

فَليَتَدَبَّرِ اللَّبِيبُ هَذَا الدُّعَاءَ وَمَا فِيهِ مِنَ المَعَارِفِ وَالعُبُودِيَّةِ، وَفِي ضِمنِهِ: أَنَّهُ لَو عَذَّبتَنِي لَعَدَلتَ فِيَّ وَلَم تَظلِمنِي، وَإِنِّي لَا أَنجُو إِلَّا بِرَحمَتِكَ وَمَغفِرَتِكَ»[2].

فَمَا نَجَا أَحَدٌ إِلَّا بِعَفوِ اللهِ، وَلَا دَخَلَ الجَنَّةَ إِلَّا بِرَحمَةِ اللهِ «فَلَولَا فَضلُ اللهِ وَرَحمَتُهُ وَمَغفِرَتُهُ، مَا

(١) «طريق الهجرتين» (ص٥١٠)، بتصرُّف.
(٢) المصدر السابق.

هَنأَ أَحدًا عَيشٌ البَتَّةَ، وَلَا عَرفَ خَالِقَهُ، وَلَا ذَكَرَهُ، وَلَا آمَنَ بِهِ، وَلَا أَطَاعَهُ»(١). فَلَا يَسعُ الخَلَائِقَ إِلَّا رَحمَتُهُ وَعَفوُهُ، وَلَا يَبلُغُ عَمَلُ أَحَدٍ مِنهُم أَن يَنجُوَ بِهِ مِنَ النَّارِ أَو يَدخُلَ بِهِ الجَنَّةَ، كَمَا قَالَ أَطوَعُ الخَلقِ لِرَبِّهِ - وَأَفضَلُهُم عَمَلًا، وَأَشَدُّهُم تَعظِيمًا لَهُ -: «**لَن يُنجِيَ أَحَدًا مِنكُم عَمَلُهُ**» قَالُوا: وَلَا أَنتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «**وَلَا أَنَا، إِلَّا أَن يَتَغَمَّدَنِيَ اللَّهُ بِرَحمَةٍ**»(٢).

فَهُم فُقَرَاءُ إِلَيهِ بِالذَّاتِ: بِكُلِّ مَعنًى وَبِكُلِّ اعتِبَارٍ، فِي جَمِيعِ الحَالَاتِ وَالأَوقَاتِ لِجَمِيعِ الأُمُورِ، سَوَاءٌ شَعَرُوا بِبَعضِ أَنوَاعِ الفَقرِ أَم لَم يَشعُرُوا.

فُقَرَاءُ إِلَيهِ، لِأَنَّهُم مُحتَاجُونَ إِلَيهِ، وَهُوَ وَحدَهُ الغَنِيُّ عَنهُم، وَكُلُّ أَهلِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرضِ يَسأَلُونَهُ، وَهُوَ لَا يَسأَلُ أَحَدًا. «فَالمَلَائِكَةُ تَسأَلُهُ مَا لَا حَيَاةَ لَهَا إِلَّا بِهِ: مِن إِعَانَتِهِ عَلَى ذِكرِهِ وَشُكرِهِ وَحُسنِ عِبَادَتِهِ،

(١) «شفاء العليل» (١/ ٣٤٩).
(٢) رواه البخاري (٦٤٦٣)، ومسلم (٢٨١٦).

وَتَنفِيذِ أَوَامِرِهِ، وَالقِيَامِ بِمَا جَعَلَ إِلَيهِم مِن مَصَالِحِ العَالَمِ العُلوِيِّ وَالسُّفلِيِّ، وَتَسأَلُهُ أَن يَغفِرَ لِبَنِي آدَمَ، وَالرُّسُلُ تَسأَلُهُ أَن يُعِينَهُم عَلَى أَدَاءِ رِسَالَاتِهِ وَتَبلِيغِهَا، وَأَن يَنصُرَهُم عَلَى أَعدَائِهِم، وَغَيرِ ذَلِكَ مِن مَصَالِحِهِم فِي مَعَاشِهِم وَمَعَادِهِم، وَبَنُو آدَمَ كُلُّهُم يَسأَلُونَهُ مَصَالِحَهُم عَلَى تَنَوُّعِهَا وَاختِلَافِهَا، وَالحَيَوَانُ كُلُّهُ يَسأَلُهُ رِزقَهُ وَغِذَاءَهُ وَقُوتَهُ وَمَا يُقِيمُهُ، وَيَسأَلُهُ الدَّفعَ عَنهُ، وَالشَّجَرُ وَالنَّبَاتُ يَسأَلُهُ غِذَاءَهُ وَمَا يَكمُلُ بِهِ، وَالكَونُ كُلُّهُ يَسأَلُهُ إِمدَادَهُ بِقَالِهِ وَحَالِهِ: ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴿٢٩﴾﴾ [الرحمن: ٢٩]»(١).

عَن أَبِي الدَّردَاءِ رضي الله عنه: عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: فِي قَولِهِ: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩]؛ قَالَ: «**مِن شَأنِهِ أَن يَغفِرَ ذَنبًا، وَيُفَرِّجَ كَربًا، وَيَرفَعَ قَومًا، وَيَضَعَ آخَرِينَ**»(٢).

(١) «شفاء العليل» (٢/ ٥٢١).
(٢) رواه ابن حبان (١٧٦٣) «موارد»، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح موارد الظمآن» (١٤٧٨).



فُقَـراءُ إِلَيهِ فِـي قَبُـولِ أَعمَـالِـهِم، قَـالَ إِبـرَاهِيمُ وَإِسمَاعِيلُ عَلَيهِمَا السَّلَامُ -وَهُمَا يَرفَعَانِ القَوَاعِدَ مِنَ البَيتِ-: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ١٢٧﴾ [البقرة: ١٢٧]. «وَالإِنسَانُ إِذَا عَلِمَ أَنَّهُ مُفتَقِرٌ إِلَى رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي العَمَلِ، وَفِي قَبُولِ العَمَلِ، زَالَ عَنهُ الإِعجَابُ؛ وَإِذَا زَالَ عَنهُ الإِعجَابُ، صَارَ حَرِيًّا بِأَنَّ اللهَ تَعَالَى يَقبَلُ مِنهُ وَيُثِيبُهُ»(١). فَأَيُّ عَمَلٍ أَجَلُّ مِن عَمَلٍ يَقبَلُهُ رَبُّ العَالَمِينَ، وَأَيُّ سَعيٍ أَكرَمُ مِن سَعيٍ يَشكُرُهُ وَيُثنِي عَلَيهِ رَبُّ العَالَمِينَ، وَأَيُّ طَاعَةٍ أَعَزُّ مِن طَاعَةٍ اختَارَهَا وَرَضِيَهَا رَبُّ العَالَمِينَ؟!

«فُقَرَاءُ إِلَيهِ لَا خُرُوجَ لَهُم عَن نِعمَتِهِ وَفَضلِهِ، وَمَنِّهِ وَإِحسَانِهِ طَرفَةَ عَينٍ، لَا فِي الدُّنيَا وَلَا فِي الآخِرَةِ»(٢). مُقَصِّرُونَ عَن شُكرِ اللهِ عَلَى نِعَمِهِ المُتَرَادِفَةِ

(١) «تفسير سورة آل عمران» (١/ ٢٢٧)، للعلَّامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ.
(٢) «شفاء العليل» (١/ ١٥٣).

المُتَوَاصِلَةِ، بِعَدَدِ الأَنفَاسِ الَّتِي لَا تُعَدُّ وَلَا تُحصَى.

فَالرَّبُّ تَعَالَى لَا يَستَطِيعُ أَحَدٌ أَن يُكَافِئَ نِعمَهُ أَبَدًا، وَلَا أَقَلَّهَا، وَلَا أَدنَى نِعمَةٍ مِن نِعَمِهِ.

وَالرَّبُّ سُبحَانَهُ وَتَعَالَى يُعطِي مَعَ استِغنَائِهِ عَنِ العَبدِ، وَالعَبدُ يَشكُرُ مَعَ افتِقَارِهِ إِلَى الرَّبِّ. فَهَل يُكَافِئُ شُكرُ المُحتَاجِ الفَقِيرِ، عَطَاءَ الغَنِيِّ الكَرِيمِ؟!

عَن أَبِي أُمَامَةَ رَضِيَ اللهُ عَنهُ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا رَفَعَ مَائِدَتَهُ قَالَ: «**الحَمدُ للهِ كَثِيرًا طَيِّبًا مُبَارَكًا فِيهِ، غَيرَ مَكفِيٍّ، وَلَا مُوَدَّعٍ، وَلَا مُستَغنًى عَنهُ رَبَّنَا**»(١).

فَالمَخلُوقُ «إِذَا أَنعَمَ عَلَيكَ بِنِعمَةٍ أَمكَنَكَ أَن تُكَافِئَهُ، وَنِعَمُهُ لَا تَدُومُ عَلَيكَ، بَل لَا بُدَّ أَن تُوَدِّعَكَ وَيَقطَعَهَا عَنكَ، وَيُمكِنُكَ أَن تَستَغنِيَ عَنهُ؛ وَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لَا يُمكِنُ أَن تُكَافِئَهُ عَلَى نِعَمِهِ، وَإِذَا أَنعَمَ عَلَيكَ أَدَامَ نِعَمَهُ،

(١) رواه البخاري (٥٤٥٨).

فَإِنَّهُ هُوَ أَغنَى وَأَقنَى، وَلَا يُستَغنَى عَنهُ طَرفَةَ عَينٍ»(١).

وَلَكِنَّ اللَّهَ تَعَالَى رَضِيَ مِنَّا بِشُهُودِ المِنَّةِ وَرُؤيَةِ التَّقصِيرِ فِي القِيَامِ بِشُكرِهِ، كَمَا فِي حَدِيثِ سَيِّدِ الاِستِغفَارِ: «**أَبُوءُ لَكَ بِنِعمَتِكَ عَلَيَّ، وَأَبُوءُ لَكَ بِذَنبِي**»(٢).

فُقَرَاءُ إِلَيهِ، غَيرُ قَادِرِينَ عَلَى تَحصِيلِ مَصَالِحِهِم، وَدَفعِ الأَضرَارِ عَن أَنفُسِهِم، كَمَا قَالَ مُوسَى عَلَيهِ السَّلَامُ: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ مِنۡ خَيۡرٖ فَقِيرٞ ٢٤﴾ [القصص: ٢٤]. «أَي: إِنِّي مُفتَقِرٌ لِلخَيرِ، الَّذِي تَسُوقُهُ إِلَيَّ، وَتُيَسِّرُهُ لِي؛ وَهَذَا سُؤَالٌ مِنهُ بِحَالِهِ، وَالسُّؤَالُ بِالحَالِ، أَبلَغُ مِنَ السُّؤَالِ بِلِسَانِ المَقَالِ؛ فَلَم يَزَل فِي هَذِهِ الحَالَةِ، دَاعِيًا رَبَّهُ مُتَمَلِّقًا»(٣) مُفتَقِرًا إِلَيهِ، مُعَلِّقًا رَجَاءَهُ بِاللَّهِ وَحدَهُ، حَتَّى فَرَّجَ كَربَهُ وَجَلَا هَمَّهُ،

(١) «فتيا في صيغة الحَمدِ» (ص١٨)، لابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ.
(٢) رواه البخاري (٦٣٠٦ و٦٣٢٣). واللفظ للرواية الأولى.
(٣) «تيسير الكريم الرحمن» (ص٨٥٩).

وَاللَّهُ هُوَ الرَّزَّاقُ(١).

وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ فِي استِغَاثَتِهِ رَبَّهُ فِي الاِستِسقَاءِ: «**اللَّهُمَّ أَنتَ اللَّهُ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنتَ، أَنتَ الغَنِيُّ، وَنَحنُ الفُقَرَاءُ! أَنزِل عَلَينَا الغَيثَ، وَاجعَل مَا أَنزَلتَ لَنَا قُوَّةً وَبَلَاغًا إِلَى حِينٍ**»(٢).

وَلَقَد ذَكَرَ النَّبِيُّ ﷺ حَدِيثًا «يَقتَضِي أَنَّ جَمِيعَ الخَلقِ مُفتَقِرُونَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى: فِي جَلبِ مَصَالِحِهِم، وَدَفعِ مَضَارِّهِم فِي أُمُورِ دِينِهِم وَدُنيَاهُم، وَأَنَّ العِبَادَ لَا يَملِكُونَ لِأَنفُسِهِم شَيئًا مِن ذَلِكَ كُلِّهِ»(٣).

عَن أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنهُ: عَنِ النَّبِيِّ ﷺ - فِيمَا رَوَى عَنِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى - أَنَّهُ قَالَ: «**يَا عِبَادِي! كُلُّكُم ضَالٌّ إِلَّا مَن هَدَيتُهُ، فَاستَهدُونِي أَهدِكُم. يَا عِبَادِي! كُلُّكُم جَائِعٌ**

(١) «المجموعة الكاملة لمؤلفات السعدي» (٥/ ٤٩).
(٢) رواه أبو داود (١١٧٣)، وحسنه الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ في «صحيح سنن أبي داود» (١/ ٣٢١).
(٣) «جامع العلوم والحكم» (٢/ ٣٧).

إِلَّا مَن أَطعَمتُهُ، فاستَطعِمُونِي أُطعِمكُم. يَا عِبَادِي! كُلُّكُم عَارٍ إِلَّا مَن كَسَوتُهُ، فَاستَكسُونِي أَكسُكُم»[١].

فَسُبحَانَ اللَّهِ وَبِحَمدِهِ، مَا أَبلَغَ هَذَا الكَلَامَ! وَأَعلَى طَبَقَتَهُ! وَأَرفَعَ مَنزِلَتَهُ![٢]

وَصَدَقَ رَبُّنَا عَزَّ وَجَلَّ: كُلُّنَا جَائِعٌ إِلَّا مَن أَطعَمَهُ اللَّهُ؛ وَلَولَا أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَسَّرَ لَنَا مَا يَكُونُ بِهِ طَعَامُنَا، لَهَلَكنَا. فَنَسأَلُ اللَّهَ أَن يُطعِمَنَا، وَأَن يَرزُقَنَا.

«وَكُلُّنَا عَارٍ إِلَّا مَن كَسَاهُ اللَّهُ، وَذَلِكَ لِأَنَّ الإِنسَانَ يَخرُجُ مِن بَطنِ أُمِّهِ لَيسَ عَلَيهِ ثِيَابٌ، بَل يَخرُجُ مُجَرَّدًا؛ بِلَا ثِيَابٍ، وَلَا شَعرٍ يَكسُوهُ، كَمَا يَكُونُ فِي الحَيَوَانِ، وَهَذَا مِن حِكمَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

فَمِن حِكمَتِهِ تَعَالَى: أَن جَعَلَنَا نَخرُجُ بَادِيَةً أَبشَارُنَا، بَادِيَةً جُلُودُنَا، حَتَّى نَعرِفَ أَنَّنَا مُحتَاجُونَ

(١) رواه مسلم (٢٥٧٧).
(٢) «نثر الجوهر على حديث أبي ذر» (ص١٤٤).

إِلَى كِسوَةٍ تَستُرُ عَورَاتِنَا حِسًّا. وَقَد سَخَّرَ اللَّهُ لَنَا مِنَ الكِسوَةِ مَا نَكسُو بِهِ أَبدَانَنَا - وَلِلَّهِ الحَمدُ - مِن أَصنَافِ اللِّبَاسِ المُتَنَوِّعَةِ»[١].

وَفِي هَذَا الحَدِيثِ: دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ اللَّهَ يُحِبُّ أَن يَسأَلَهُ العِبَادُ جَمِيعَ مَصَالِحِ دِينِهِم وَدُنيَاهُم، مِنَ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ وَالكِسوَةِ وَغَيرِ ذَلِكَ[٢].

عَن أَبِي هُرَيرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنهُ قَالَ: دَعَا رَجُلٌ مِنَ الأَنصَارِ النَّبِيَّ ﷺ، قَالَ: فَانطَلَقنَا مَعَهُ، فَلَمَّا طَعِمَ وَغَسَلَ يَدَيهِ؛ قَالَ: «**الحَمدُ لِلَّهِ الَّذِي يُطعِمُ وَلَا يُطعَمُ، مَنَّ عَلَينَا فَهَدَانَا، وَأَطعَمَنَا وَسَقَانَا، وَكُلَّ بَلَاءٍ حَسَنٍ أَبلَانَا، الحَمدُ لِلَّهِ الَّذِي أَطعَمَ مِنَ الطَّعَامِ، وَسَقَى مِنَ الشَّرَابِ، وَكَسَا مِنَ العُرِي، وَهَدَى مِنَ الضَّلَالَةِ، وَبَصَّرَ مِنَ العَمَى، وَفَضَّلَ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّن خَلَقَ**

(١) «شرح رياض الصالحين» للشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ (٢/ ١٢٨ - ١٢٩)، ببعض تصرُّف.
(٢) «جامع العلوم والحكم» (٢/ ٣٨).

تفضِيلًا، الحَمدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ»[١].

قَولُهُ: «**يُطعِمُ وَلَا يُطعَمُ**» أَي: يَرزُقُ وَلَا يُرزَقُ؛ دَلِيلُهُ قَولُهُ تَعَالَى: ﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝٥٧﴾ [الذاريات: ٥٧][٢].

وَعَن رَجُلٍ خَدَمَ رَسُولَ اللهِ ﷺ ثَمَانِيَ سِنِينَ: أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ إِذَا قُرِّبَ إِلَيهِ طَعَامُهُ، يَقُولُ: «**بِسمِ اللهِ**» وَإِذَا فَرَغَ مِن طَعَامِهِ قَالَ: «**اللَّهُمَّ أَطعَمتَ وَأَسقَيتَ، وَأَغنَيتَ وَأَقنَيتَ، وَهَدَيتَ وَأَحيَيتَ، فَلَكَ الحَمدُ عَلَى مَا أَعطَيتَ**»[٣].

قَولُهُ: «**أَقنَيتَ**»؛ أَي: مَلَّكتَ المَالَ وَغَيرَهُ[٤]. قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ۝٤٨﴾ [النجم: ٤٨].

(١) رواه ابن حبان (١٣٥٢) «موارد»، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح موارد الظمآن» (١١٣١).
(٢) «الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ٢٥٦).
(٣) رواه أحمد (٤/ ٦٢)، وصححه الألباني رحمه الله في «الصحيحة» (٧١).
(٤) «السلسلة الصحيحة» (١/ ١٥٢).

قَولُهُ: «**فَلَكَ الحَمدُ عَلَى مَا أَعطَيتَ**» أَي: مَا أَعطَيتَ مِنَ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ، وَالغِنَى وَالقَنَى وَالهِدَايَةِ وَالحَيَاةِ، أَو مَا أَعطَيتَ مُطلَقًا عَلَى وَجهِ العُمُومِ[١].

فُقَرَاءُ إِلَيهِ مِن جِهَةِ العِبَادَةِ، وَمِن جِهَةِ الِاستِعَانَةِ. «فَالقَلبُ لَا يُفلِحُ، وَلَا يَصلُحُ، وَلَا يَتَنَعَّمُ، وَلَا يَبتَهِجُ، وَلَا يَلتَذُّ، وَلَا يَطمَئِنُّ، وَلَا يَسكُنُ إِلَّا بِعِبَادَةِ رَبِّهِ، وَحُبِّهِ، وَالإِنَابَةِ إِلَيهِ. وَلَو حَصَلَ لَهُ جَمِيعُ مَا يَلتَذُّ بِهِ مِنَ المَخلُوقَاتِ لَم يَطمَئِنَّ إِلَيهَا، وَلَم يَسكُن إِلَيهَا، بَل لَا تَزِيدُهُ إِلَّا فَاقَةً وَقَلَقًا، حَتَّى يَظفَرَ بِمَا خُلِقَ لَهُ وَهُيِّئَ لَهُ؛ مِن كَونِ اللهِ وَحدَهُ نِهَايَةَ مُرَادِهِ، وَغَايَةَ مَطَالِبِهِ، فَإِنَّ فِيهِ فَقرًا ذَاتِيًّا إِلَى رَبِّهِ وَإِلَهِهِ، مِن حَيثُ هُوَ مَعبُودُهُ وَمَحبُوبُهُ، وَإِلَهُهُ وَمَطلُوبُهُ»[٢]. فَلَا بُدَّ لَهُ مِنهُ فِي كُلِّ وَقتٍ، وَفِي كُلِّ حَالٍ، وَأَينَمَا كَانَ[٣]. كَمَا أَنَّ فِيهِ فَقرًا ذَاتِيًّا إِلَيهِ: مِن حَيثُ هُوَ رَبُّهُ وَخَالِقُهُ، وَرَازِقُهُ

(١) «العلم الهيِّب» (ص٤٦٥).
(٢) «موارد الأمان» (ص٤٣٢).
(٣) المصدر السابق (ص٧٤).

وَمُدَبِّرُهُ[(١)]. وَبِذَلِكَ يَحصُلُ لَهُ الفَرَحُ وَالسُّرُورُ، وَاللَّذَّةُ وَالنِّعمَةُ، وَالسُّكُونُ وَالطُّمَأنِينَةُ.

«فَنَفسُ الإِيمَانِ بِهِ وَمَحَبَّتِهِ، وَعِبَادَتِهِ وَإِجلَالِهِ وَذِكرِهِ: هُوَ غِذَاءُ الإِنسَانِ وَقُوَّتُهُ، وَصَلَاحُهُ وَقِوَامُهُ»[(٢)].

وَهَذَا لَا يَحصُلُ لَهُ إِلَّا بِإِعَانَةِ اللهِ لَهُ، لَا يَقدِرُ عَلَى تَحصِيلِ ذَلِكَ لَهُ إِلَّا اللهُ، فَهُوَ دَائِمًا مُفتَقِرٌ إِلَى حَقِيقَةِ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة: ٥].

وَلَو سَعَى فِي هَذَا المَطلُوبِ، وَلَم يَكُن مُستَعِينًا بِاللهِ، مُتَوَكِّلًا عَلَيهِ، مُفتَقِرًا إِلَيهِ فِي حُصُولِهِ، لَم يَحصُل لَهُ؛ فَإِنَّ مَا لَا يَكُونُ بِحَولِهِ وَقُوَّتِهِ: لَا يَكُونُ، فَإِنَّهُ لَا حَولَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ، فَهُوَ الَّذِي بِيَدِهِ الحَولُ كُلُّهُ، وَالقُوَّةُ كُلُّهَا. «فَهُوَ مُفتَقِرٌ إِلَيهِ مِن حَيثُ هُوَ المَطلُوبُ المَحبُوبُ المُرَادُ المَعبُودُ، وَمِن حَيثُ هُوَ المَسؤُولُ المُستَعَانُ بِهِ، المُتَوَكَّلُ عَلَيهِ، فَهُوَ إِلَهُهُ لَا

(١) «موارد الأمان» (ص٤٣٣).
(٢) المصدر السابق (ص٧٤ - ٧٥).

إِلَهَ لَهُ غَيرُهُ، وَهُوَ رَبُّهُ لَا رَبَّ لَهُ سِوَاهُ»[(١)].

وَبِالجُملَةِ: فَإِنَّ «جَمِيعَ المَخلُوقَاتِ مُفتَقِرَةٌ إِلَيهِ تَعَالَى فِي وُجُودِهَا، فَلَا وُجُودَ لَهَا إِلَّا بِهِ، فَهِيَ مُفتَقِرَةٌ إِلَيهِ فِي قِيَامِهَا، فَلَا قِوَامَ لَهَا إِلَّا بِهِ، فَلَا حَرَكَةَ وَلَا سُكُونَ إِلَّا بِإِذنِهِ؛ فَهُوَ الحَيُّ القَيُّومُ، القَائِمُ بِنَفسِهِ، فَلَا يَحتَاجُ إِلَى شَيءٍ، القَيِّمُ لِغَيرِهِ، فَلَا قِوَامَ لِشَيءٍ إِلَّا بِهِ؛ فَلِلخَالِقِ مُطلَقُ الغِنَى وَكَمَالُهُ، وَلِلمَخلُوقِ مُطلَقُ الفَقرِ إِلَى اللهِ وَكَمَالُهُ»[(٢)].

وَهُوَ الغَنِيُّ بِذَاتِهِ سُبحَانَهُ
جَلَّ ثَنَاؤُهُ تَعَالَى شَأنُهُ
وَكُلُّ شَيءٍ رِزقُهُ عَلَيهِ
وَكُلُّنَا مُفتَقِرٌ إِلَيهِ[(٣)]

وَقَد قَرَنَ سُبحَانَهُ غِنَاهُ بِالحِلمِ، كَمَا فِي

(١) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ١٩٤ - ١٩٥).
(٢) «معارج القبول» (١/ ٢٤٤).
(٣) المصدر السابق.

قَولِهِ ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ۝٢٦٣﴾ [البقرة: ٢٦٣]، لِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّهُ ﷻ - مَعَ غِنَاهُ التَّامِّ مِن كُلِّ وَجهٍ -: فَهُوَ المَوصُوفُ بِالحِلمِ وَالتَّجَاوُزِ وَالصَّفحِ، مَعَ عَطَائِهِ الوَاسِعِ وَصَدَقَاتِهِ العَمِيمَةِ، وَأَنَّ حِلمَهُ لَم يَكُن عَن حَاجَةٍ؛ فَهُوَ مَعَ حِلمِهِ عَلَى عِبَادِهِ، غَنِيٌّ عَنهُم، غَيرُ مُحتَاجٍ إِلَيهِم.

كَمَا قَرَنَ غِنَاهُ بِالرَّحمَةِ، كَمَا فِي قَولِهِ تَعَالَى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ [الأنعام: ١٣٣]؛ فَهُوَ مَعَ كَونِهِ غَنِيًّا عَن خَلقِهِ، فَهُوَ ذُو رَحمَةٍ بِهِم «لَا يَكُونُ غِنَاهُ عَنهُم مَانِعًا مِن رَحمَتِهِ لَهُم، وَمَا أَحسَنَ هَذَا الكَلَامَ الرَّبَّانِيَّ وَأَبلَغَهُ! وَمَا أَقوَى الِاقتِرَانَ بَينَ الغِنَى وَالرَّحمَةِ فِي هَذَا المَقَامِ! فَإِنَّ الرَّحمَةَ لَهُم، مَعَ الغِنَى عَنهُم، هِيَ غَايَةُ التَّفَضُّلِ وَالتَّطَوُّلِ»(١).

كَمَا قَرَنَ غِنَاهُ بِالحَمدِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ۝١٥﴾ [فاطر: ١٥]؛ لِأَنَّهُ «لَيسَ كُلُّ

(١) «فتح القدير» (٢/ ٢٣٩).

غَنِيٍّ نَافِعًا بِغِنَاهُ، إِلَّا إِذَا كَانَ الغَنِيُّ جَوَادًا مُنعِمًا، وَإِذَا جَادَ وَأَنعَمَ، حَمِدَهُ المُنعَمُ عَلَيهِم، وَاستَحَقَّ عَلَيهِمُ الحَمدَ؛ وَلِيَدُلَّ بِهِ عَلَى أَنَّهُ الغَنِيُّ النَّافِعُ بِغِنَاهُ خَلقَهُ، الجَوَادُ المُنعِمُ عَلَيهِم، المُستَحِقُّ بِإِنعَامِهِ عَلَيهِم أَن يَحمَدُوهُ»(١).

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ۝٦﴾ [التغابن: ٦]؛ أَي: هُوَ الغَنِيُّ، الَّذِي لَهُ الغِنَى التَّامُّ المُطلَقُ، مِن جَمِيعِ الوُجُوهِ؛ فَلَهُ الغِنَى الكَامِلُ التَّامُّ، مِن كُلِّ وَجهٍ، بِكُلِّ اعتِبَارٍ. الحَمِيدُ فِي أَقوَالِهِ وَأَفعَالِهِ وَأَوصَافِهِ. المُستَحِقُّ لِكُلِّ حَمدٍ وَمَحَبَّةٍ وَثَنَاءٍ وَإِكرَامٍ، وَذَلِكَ لِمَا اتَّصَفَ بِهِ مِن صِفَاتِ الحَمدِ، الَّتِي هِيَ صِفَةُ الجَمَالِ وَالجَلَالِ، وَلِمَا أَنعَمَ بِهِ عَلَى خَلقِهِ مِنَ النِّعَمِ الجِزَالِ، فَهُوَ المَحمُودُ عَلَى كُلِّ حَالٍ.

وَهُوَ الغَنِيُّ فِي حَمدِهِ، الحَمِيدُ فِي غِنَاهُ.

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (١٤/ ٢١٥).

وَمَا أَحسَنَ اقتِرَانَ هَذَينِ الاسمَينِ الكَرِيمَينِ ﴿ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾! فَإِنَّهُ غَنِيٌّ مَحمُودٌ، فَلَهُ كَمَالٌ مِن غِنَاهُ، وَكَمَالٌ مِن حَمدِهِ، وَكَمَالٌ مِنَ اقتِرَانِ أَحَدِهِمَا بِالآخَرِ.

فَغِنَاهُ جَلَّ وَعَلَا وَاسِعٌ، لَا يَنفَدُ عَطَاؤُهُ، وَغِنَى جَمِيعِ الخَلَائِقِ فِي جَنبِ غِنَاهُ، أَقَلُّ مِن ذَرَّةٍ فِي جِبَالِ الدُّنيَا وَرِمَالِهَا. وَلَو كَانَ غِنَى العِبَادِ «عَلَى رَجُلٍ وَاحِدٍ، وَكُلُّ الخَلَائِقِ عَلَى ذَلِكَ الغِنَى، لَكَانَت نِسبَتُهُ إِلَى غِنَاهُ، دُونَ نِسبَةِ قَطرَةٍ إِلَى البَحرِ. بَل كُلُّ غَنِيٍّ خَلَقَهُ اللهُ، وَيَخلُقُهُ أَبَدًا: أَقَلُّ مِن ذَرَّةٍ بِالقِيَاسِ إِلَى غِنَاهُ، وَأَقَلُّ مِن قَطرَةٍ فِي بِحَارِ الدُّنيَا.

فَلَيسَ الغَنِيُّ عَلَى الإِطلَاقِ إِلَّا هُوَ، وَغِنَاهُ: «فَوقَ مَا يَخطُرُ بِبَالِ الخَلقِ، أَو يَدُورُ فِي أَوهَامِهِم»[١].

وَالكَلَامُ فِي صِفَةِ الغِنَى كَثِيرٌ جِدًّا، لَو أَرَدنَا استِقصَاءَهُ، لَطَالَ الفَصلُ؛ «وَفِيمَا ذَكَرنَا كِفَايَةٌ،

(١) «تهذيب المدارج» (ص٢١١).

فَسُبحَانَ مَن وَسِعَ خَلقَهُ بِغِنَاهُ، وَافتَقَرَ كُلُّ شَيءٍ إِلَيهِ، وَهوَ غَنِيٌّ عَمَّا سِوَاهُ»[١].

الفَائِدَةُ المَسلَكِيَّةُ مِنَ الإِيمَانِ بِصِفَةِ الغِنَى:

١- مَحَبَّةُ اللهِ وَالتَّقَرُّبُ إِلَيهِ:

إِذَا شَهِدَ العَبدُ مَلِكًا غَنِيًّا، يَرحَمُهُ وَيُجِيبُ دُعَاءَهُ، وَيَكشِفُ كَربَهُ، وَيُغِيثُ لَهفَتَهُ، مِن غَيرِ حَاجَةٍ مِنهُ إِلَيهِ، بَل مَعَ غِنَاهُ التَّامِّ عَنهُ مِن جَمِيعِ الوُجُوهِ؛ «فَكَيفَ لَا يُحِبُّ العَبدُ، بِكُلِّ قَلبِهِ وَجَوَارِحِهِ: مَن يُحسِنُ إِلَيهِ عَلَى الدَّوَامِ، بِعَدَدِ الأَنفَاسِ مَعَ إِسَاءَتِهِ؟!»[٢]. فَكَيفَ لَا يُحِبُّهُ وَيَتَنَافَسُ فِي القُربِ مِنهُ، وَيُنفِقُ أَنفَاسَهُ فِي التَّوَدُّدِ إِلَيهِ، وَيَكُونُ أَحَبَّ إِلَيهِ مِن كُلِّ مَا سِوَاهُ، وَرِضَاهُ آثَرَ عِندَهُ مِن رِضَا كُلِّ مَا سِوَاهُ؟!

وَكَيفَ لَا يَلهَجُ بِذِكرِهِ، وَيَصِيرُ حُبُّهُ، وَالشَّوقُ

(١) «معارج القبول» (١/ ٢٤٧).
(٢) «الداء والدواء» (ص٣٥٣).

إِلَيهِ، وَالأُنسُ بِهِ: هُوَ غِذَاءُهُ وَقُوَّتَهُ وَدَوَاءُهُ، بِحَيثُ إِن فَقَدَ ذَلِكَ؛ فَسَدَ وَهَلَكَ، وَلَم يَنتَفِع بِحَيَاتِهِ؟![١].

وَكُلُّ لَذَّةٍ وَنَعِيمٍ وَسُرُورٍ وَبَهجَةٍ، بِالإِضَافَةِ إِلَى ذَلِكَ، كَقَطرَةٍ فِي بَحرٍ. فَمَن قَطَعَهُ عَن هَذَا أَمَلٌ، فَقَد فَازَ بِالحِرمَانِ، وَرَضِيَ لِنَفسِهِ بِغَايَةِ الخُسرَانِ، وَاللهُ المُستَعَانُ، وَعَلَيهِ التُّكلَانُ، وَمَا شَاءَ اللهُ كَانَ.

٢- مَعرِفَةُ العَبدِ بِغِنَى رَبِّهِ، تُوجِبُ افتِقَارَهُ إِلَيهِ:

مَعرِفَةُ العَبدِ بِرَبِّهِ: تُنتِجُ لَهُ فَقرًا هُوَ عَينُ غِنَاهُ، وَعُنوَانُ فَلَاحِهِ وَسَعَادَتِهِ. وَتَفَاوُتُ النَّاسِ فِي هَذَا الفَقرِ: بِحَسَبِ تَفَاوُتِهِم فِي هَذِهِ المَعرِفَةِ، فَمَن عَرَفَ رَبَّهُ، فَقَد عَرَفَ نَفسَهُ. مَن عَرَفَ رَبَّهُ بِصِفَاتِ الكَمَالِ وَنُعُوتِ الجَلَالِ، عَرَفَ نَفسَهُ بِالنَّقَائِصِ وَالآفَاتِ. مَن عَرَفَ رَبَّهُ بِالقُوَّةِ، عَرَفَ نَفسَهُ بِالضَّعفِ؛ وَمَن عَرَفَ رَبَّهُ بِالغِنَى المُطلَقِ، عَرَفَ نَفسَهُ بِالفَقرِ المُطلَقِ؛ وَمَن

(١) «فوائد الفوائد» (ص٧٧)، بتصرُّف.

عَرَفَ رَبَّهُ بِالقُدرَةِ التَّامَّةِ، عَرَفَ نَفسَهُ بِالعَجزِ التَّامِّ؛ وَمَن عَرَفَ رَبَّهُ بِالعِزِّ التَّامِّ، عَرَفَ نَفسَهُ بِالذُّلِّ وَالمَسكَنَةِ التَّامَّةِ؛ وَمَن عَرَفَ رَبَّهُ بِالعِلمِ التَّامِّ وَالحِكمَةِ، عَرَفَ نَفسَهُ بِالجَهلِ؛ وَمَن عَرَفَ رَبَّهُ بِالمَجدِ وَالغِنَى، عَرَفَ نَفسَهُ بِالفَقرِ وَالنَّقصِ وَالاِحتِيَاجِ؛ «فَإِنَّ اللهَ استَأثَرَ بِالكَمَالِ المُطلَقِ، وَالحَمدِ وَالثَّنَاءِ، وَالمَجدِ وَالغِنَى، وَالعَبدُ فَقِيرٌ نَاقِصٌ مُحتَاجٌ»[١]؛ وَكُلَّمَا ازدَادَت مَعرِفَتُهُ لِرَبِّهِ بِأَوصَافِ كَمَالِهِ، ازدَادَت مَعرِفَتُهُ بِنَقصِهِ وَعَيبِهِ، وَفَقرِهِ وَذُلِّهِ وَضَعفِهِ.

٣- حَاجَةُ العَبدِ إِلَى رَبِّهِ أَعظَمُ مِن كُلِّ حَاجَةٍ:

مَتَى شَهِدَ العَبدُ غِنَى اللهِ عَن كُلِّ شَيءٍ، وَفَقرَ المَخلُوقَاتِ إِلَى اللهِ فِي كُلِّ شَيءٍ، صَارَ فَقرُهُ وَضَرُورَتُهُ إِلَى رَبِّهِ وَصفًا لَازِمًا لَهُ، لَا غِنَى لَهُ عَنِ اللهِ؛ وَلَا بُدَّ لَهُ مِنهُ فِي كُلِّ حَالَةٍ، وَكُلِّ دَقِيقَةٍ، وَكُلِّ طَرفَةِ عَينٍ، وَهُوَ مَعَهُ أَينَمَا كَانَ. وَضَرُورَتُهُ وَحَاجَتُهُ

(١) «تهذيب المدارج» (ص٣٦٤).

إِلَيهِ: لَا تُشبِهُهَا ضَرُورَةٌ وَلَا حَاجَةٌ، بَل هِيَ فَوقَ كُلِّ ضَرُورَةٍ، وَأَعظَمُ مِن كُلِّ حَاجَةٍ؛ أَعظَمُ مِن ضَرُورَتِهِ إِلَى النَّفَسِ وَالطَّعَامِ وَالشَّرَابِ، وَأَعظَمُ مِن ضَرُورَةِ البَدَنِ إِلَى رُوحِهِ، وَالعَينِ إِلَى نُورِهَا، وَالرُّوحِ إِلَى حَيَاتِهَا؛ فَأَيُّ ضَرُورَةٍ وَحَاجَةٍ فُرِضَت، فَضَرُورَةُ العَبدِ وَحَاجَتُهُ إِلَى رَبِّهِ فَوقَهَا بِكَثِيرٍ. «فَإِنَّهُ إِن أَمسَكَ عَنهُ رَحمَتَهُ، وَتَوفِيقَهُ، وَهِدَايَتَهُ طَرفَةَ عَينٍ، خَسِرَ»[1].

فَهُوَ لَا غِنَى لَهُ عَنهُ طَرفَةَ عَينٍ، بَل هُوَ مُضطَرٌّ إِلَيهِ عَلَى مَدَى الأَنفَاسِ، فِي كُلِّ ذَرَّةٍ مِن ذَرَّاتِهِ، بَاطِنًا وَظَاهِرًا، فَاقَتُهُ تَامَّةٌ إِلَيهِ[2]؛ مِن جِهَةِ كَونِهِ رَبَّهُ، وَخَالِقَهُ وَفَاطِرَهُ، وَنَاصِرَهُ، وَحَافِظَهُ وَمُعِينَهُ وَرَازِقَهُ، وَهَادِيَهُ وَمُعَافِيَهُ، وَالقَائِمَ بِجَمِيعِ مَصَالِحِهِ، وَمِن جِهَةِ كَونِهِ مَعبُودَهُ وَإِلَـٰهَهُ، وَحَبِيبَهُ الَّذِي لَا تَكمُلُ حَيَاتُهُ، وَلَا تَنفَعُ إِلَّا بِأَن يَكُونَ هُوَ وَحدَهُ أَحَبَّ شَيءٍ إِلَيهِ، وَأَشوَقَ

(١) «موارد الأمان» (ص١٤٤).
(٢) «فوائد الفوائد» (ص١٠٢).

شَيءٍ إِلَيهِ[1]. فَلَا يَشهَدُ لَهُ حَالًا مَعَ اللَّهِ وَلَا مَقَامًا، كَمَا لَم يَشهَد لَهُ عَمَلًا؛ لِأَنَّهُ - وَكُلُّ مَا فِيهِ مِن خَيرٍ -، فَهُوَ مَحضُ جُودِ اللَّهِ وَإِحسَانِهِ، وَلَيسَ لِلعَبدِ مِن ذَاتِهِ سِوَى العَدَمِ؛ وَذَاتُهُ وَصِفَاتُهُ، وَإِيمَانُهُ وَأَعمَالُهُ: كُلُّهَا مِن فَضلِ اللَّهِ عَلَيهِ، فَلَا يَرَاهَا إِلَّا مِنَ اللَّهِ، وَبِاللَّهِ، وَلَيسَت مِنهُ هُوَ، وَلَا بِهِ.

فَقَد جَعَلَ عُدَّتَهُ لِلِقَاءِ رَبِّهِ: فَقرَهُ مِن أَعمَالِهِ وَأَحوَالِهِ. فَهُوَ لَا يَقدُمُ عَلَيهِ إِلَّا بِالفَقرِ المَحضِ. فَالفَقرُ خَيرُ العَلَاقَةِ الَّتِي بَينَهُ وَبَينَ رَبِّهِ، وَالنِّسبَةُ الَّتِي يَنتَسِبُ بِهَا إِلَيهِ، وَالبَابُ الَّذِي يَدخُلُ مِنهُ عَلَيهِ[2]. وَالطَّرِيقُ الأَعظَمُ الَّذِي لَا يَدخُلُ عَلَيهِ إِلَّا مِنهُ، وَكُلُّ طَرِيقٍ سِوَاهُ فَمَسدُودٌ[3]. فَهُوَ «بَابُ السَّعَادَةِ وَطَرِيقُهَا الأَقوَمُ، الَّذِي لَا سَبِيلَ إِلَى دُخُولِهَا إِلَّا مِنهُ»[4]. وَهُوَ

(١) «تهذيب المدارج» (ص٩٧٧ - ٩٧٨).
(٢) المصدر السابق (ص٧٥٤ - ٧٥٥).
(٣) المصدر السابق (ص٨٥٢).
(٤) «طريق الهجرتين» (ص٩).

لُبُّ العُبُودِيَّةِ وَسِرُّهَا، وَحُصُولُهُ أَنفَعُ شَيءٍ لِلعَبدِ، وَأَحَبُّ شَيءٍ إِلَى اللهِ[1].

وَحَقِيقَةُ العُبُودِيَّةِ: كَمَالُ الافتِقَارِ إِلَى اللهِ مِن كُلِّ وَجهٍ، وَهَذَا الافتِقَارُ هُوَ عَينُ الغِنَى بِهِ.

فَهَذَا البَابُ أَقرَبُ بَابٍ دَخَلَ مِنهُ العَبدُ عَلَى اللهِ تَعَالَى، فَلَا يُزَكِّي نَفسَهُ، وَلَا يُعجَبُ بِأَعمَالِهِ، وَلَا يَنظُرُ إِلَيهَا، «بَل يَدخُلُ عَلَى اللهِ تَعَالَى مِن بَابِ الافتِقَارِ [إِلَى اللهِ مِن كُلِّ وَجهٍ]، دُخُولَ مَن قَد كَسَرَ الفَقرُ وَالمَسكَنَةُ قَلبَهُ، وَشَهِدَ ضَرُورَتَهُ إِلَى رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَكَمَالَ فَاقَتِهِ وَفَقرِهِ إِلَيهِ، وَأَنَّ فِي كُلِّ ذَرَّةٍ مِن ذَرَّاتِهِ الظَّاهِرَةِ وَالبَاطِنَةِ فَاقَةً تَامَّةً، وَضَرُورَةً كَامِلَةً إِلَى رَبِّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى»[2]. عَلَى تَعَاقُبِ الأَنفَاسِ «وَأَنَّهُ إِن تَخَلَّى عَنهُ طَرفَةَ عَينٍ هَلَكَ، وَخَسِرَ خَسَارَةً لَا تُجبَرُ؛ إِلَّا أَن يَعُودَ اللهُ تَعَالَى

(١) «تهذيب المدارج» (ص٢٠٧).
(٢) «الوابل الصيب» (ص١٢).

عَلَيهِ، وَيَتَدَارَكَهُ بِرَحمَتِهِ»[1].

فَلَا طَرِيقَ إِلَى اللهِ البَتَّةَ أَبَدًا - وَلَو تَعَنَّى المُتَعَنُّونَ، وَتَمَنَّى المُتَمَنُّونَ -، إِلَّا الافتِقَارُ[2].

وَكُلَّمَا كَانَ العَبدُ أَعظَمَ شُهُودًا لِفَقرِهِ، وَضَرُورَتِهِ وَحَاجَتِهِ إِلَى رَبِّهِ، وَعَدَمِ استِغنَائِهِ عَنهُ طَرفَةَ عَينٍ، كَانَ أَقرَبَ إِلَيهِ، وَأَعَزَّ لَهُ، وَأَعظَمَ لِقَدرِهِ. فَرَفَعَهُ وَقَرَّبَهُ مِنهُ، وَأَكرَمَهُ وَاجتَبَاهُ وَوَالَاهُ. فَأَفقَرُ النَّاسِ إِلَى اللهِ أَغنَاهُم بِهِ، وَأَذَلُّهُم لَهُ أَعَزُّهُم، وَأَضعَفُهُم بَينَ يَدَيهِ أَقوَاهُم، وَأَجهَلُهُم عِندَ نَفسِهِ أَعلَمُهُم بِاللهِ، وَأَمقَتُهُم لِنَفسِهِ أَقرَبُهُم إِلَى مَرضَاةِ اللهِ. وَلِهَذَا: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا كَرَبَهُ أَمرٌ قَالَ: «**يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ، بِرَحمَتِكَ أَستَغِيثُ!**»[3]. وَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**دَعَوَاتُ المَكرُوبِ: اللَّهُمَّ رَحمَتَكَ أَرجُو، فَلَا تَكِلنِي إِلَى نَفسِي طَرفَةَ عَينٍ،**

(١) «الوابل الصيب» (ص١٢).
(٢) «تهذيب المدارج» (ص٨٥٢).
(٣) رواه الترمذي (٣٥٢٤)، وحسنه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن الترمذي» (٣/ ٤٤٨).

وَأَصلِح لِي شَأنِي كُلَّهُ، لَا إِلهَ إِلَّا أَنتَ»[١].

وَعَن أَنَسِ بنِ مَالِكٍ رضي الله عنه يَقُولُ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِفَاطِمَةَ رضي الله عنها: «**مَا يَمنَعُكِ أَن تَسمَعِي مَا أُوصِيكِ بِهِ؟! أَن تَقُولِي إِذَا أَصبَحتِ وَإِذَا أَمسَيتِ: يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ! بِرَحمَتِكَ أَستَغِيثُ، أَصلِح لِي شَأنِي كُلَّهُ، وَلَا تَكِلنِي إِلَى نَفسِي طَرفَةَ عَينٍ**»[٢].

فَمَن وَكَلَهُ اللَّهُ إِلَى نَفسِهِ - الَّتِي هِيَ مَنبَعُ كُلِّ شَرٍّ، وَمَأوَى كُلِّ سُوءٍ -، فَالهَلَاكُ أَقرَبُ إِلَيهِ مِن شِرَاكِ نَعلِهِ. وَهَلَكَ «كُلَّ الهَلَاكِ، وَانفَرَطَ عَلَيهِ أَمرُهُ»[٣]. فَمَا هَلَكَ مَن هَلَكَ، إِلَّا حَيثُ وُكِلَ إِلَى نَفسِهِ[٤].

فَالفَقِيرُ هُوَ الَّذِي حَاجَاتُهُ إِلَى اللَّهِ: بِعَدَدِ أَنفَاسِهِ

(١) رواه أبو داود (٥٠٩٠)، وحسنه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن أبي داود» (٣/ ٢٥١).
(٢) رواه النسائي في «عمل اليوم والليلة» (٥٧٠)، وحسنه الألباني رحمه الله في «صحيح الترغيب والترهيب» (٦٦١).
(٣) «تهذيب المدارج» (ص٩٣).
(٤) المصدر السابق (ص٢١٨).

أَو أَكثَرُ، فَالعَبدُ لَهُ فِي كُلِّ نَفَسٍ وَلَحظَةٍ وَطَرفَةِ عَينٍ: عِدَّةُ حَوَائِجَ إِلَى اللَّهِ، لَا يَشعُرُ بِكَثِيرٍ مِنهَا؛ فَأَفقَرُ النَّاسِ إِلَى اللَّهِ: مَن شَعَرَ بِهَذِهِ الحَاجَاتِ، وَطَلَبَهَا مِن[١] الغَنِيِّ الحَمِيدِ. «فَإِنَّ كُلَّ مَا يَحتَاجُ العَبدُ إِلَيهِ: إِذَا سَأَلَهُ مِنَ اللَّهِ، فَقَد أَظهَرَ حَاجَتَهُ فِيهِ، وَافتِقَارَهُ إِلَى اللَّهِ، وَذَلِكَ يُحِبُّهُ اللَّهُ»[٢]. فَيُغنِيهِ مِن حَيثُ لَا يَحتَسِبُ، وَيُعطِيهِ مِن حَيثُ لَم يَرتَقِب.

عَن عَبدِ اللَّهِ بنِ مَسعُودٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**مَن نَزَلَت بِهِ فَاقَةٌ فَأَنزَلَهَا بِالنَّاسِ، لَم تُسَدَّ فَاقَتُهُ؛ وَمَن نَزَلَت بِهِ فَاقَةٌ فَأَنزَلَهَا بِاللَّهِ، فَيُوشِكُ اللَّهُ لَهُ بِرِزقٍ عَاجِلٍ أَو آجِلٍ**»[٣].

فَمَن أَنزَلَ حَاجَتَهُ بِالنَّاسِ، وَفَاقَتَهُ بِالنَّاسِ، فَإِنَّهَا لَا تُقضَى حَاجَتُهُ؛ لِأَنَّ مَن تَعَلَّقَ شَيئًا وُكِلَ إِلَيهِ، وَمَن

(١) «طريق الهجرتين» (ص٩٧).
(٢) «جامع العلوم والحكم» (٢/ ٣٩).
(٣) رواه الترمذي (٢٣٢٦)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح الترغيب والترهيب» (٨٣٨).

وَكَّلَ إِلَى النَّاسِ أَمرَهُ، فَإِنَّهُ خَائِبٌ لَا تُقضَى حَاجَتُهُ، وَيَستَمِرُّ دَائِمًا يَسأَلُ وَلَا يَشبَعُ، وَمَن أَنزَلَهَا بِاللَّهِ ﷻ وَاعتَمَدَ عَلَى اللَّهِ وَتَوَكَّلَ عَلَيهِ، وَفَعَلَ الأَسبَابَ الَّتِي أُمِرَ بِهَا، فَإِنَّهُ يُوشِكُ أَن تُقضَى حَاجَتُهُ؛ لِأَنَّ اللَّهَ سُبحَانَهُ وَتَعَالَى يَقُولُ: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ﴾ [الطلاق:٣][١]. وَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغۡنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ٣٢﴾ [النور: ٣٢].

وَلِشَيخِ الإِسلَامِ ابنِ تَيمِيَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ:

أَنَا الفَقِيرُ إِلَى رَبِّ البَرِيَّاتِ
أَنَا المِسكِينُ فِي مَجمُوعِ حَالَاتِي
أَنَا الظَّلُومُ لِنَفسِي وَهِيَ ظَالِمَتِي
وَالخَيرُ إِن يَأتِنَا مِن عِندِهِ يَاتِي
لَا أَستَطِيعُ لِنَفسِي جَلبَ مَنفَعَةٍ
وَلَا عَنِ النَّفسِ لِي دَفعُ المَضَرَّاتِ

(١) «شرح رياض الصالحين» (٣/ ٣٩٢)، للعلامة ابن عثيمين رحمه الله.

وَالفَقرُ لِي وَصفُ ذَاتٍ لَازِمٌ أَبَدًا
كَمَا الغِنَى أَبَدًا وَصفٌ لَهُ ذَاتِي
وَهَذِهِ الحَالُ حَالُ الخَلقِ أَجمَعِهِم
وَكُلُّهُم عِندَهُ عَبدٌ لَهُ آتِي[١]

فأين هذا ممن يقول: «أَنَا»، وَ«لِي»، وَ«عِندِي»؟!

فَإِنَّ هَذِهِ الأَلفَاظَ الثَّلَاثَةَ: ابتُلِيَ بِهَا إِبلِيسُ، وَفِرعَونُ، وَقَارُونُ؛ فَـ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ﴾ [الأعراف: ١٢]: لِإِبلِيسَ، وَ﴿لِي مُلۡكُ مِصۡرَ﴾ [الزخرف: ٥١]: لِفِرعَونَ، وَ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ﴾ [القصص: ٧٨]: لِقَارُونَ.

وَأَحسَنُ مَا وُضِعَت «أَنَا»: فِي قَولِ العَبدِ: أَنَا العَبدُ المُذنِبُ، المُخطِئُ، المُستَغفِرُ، المُعتَرِفُ، وَنَحوُهُ.

وَ«لِي»: فِي قَولِهِ: لِي الذَّنبُ، وَلِي الجُرمُ، وَلِي المَسكَنَةُ، وَلِي الفَقرُ وَالذُّلُّ.

(١) «تهذيب مدارج السالكين» (ص٤٤٣).

وَعِنْدِي: فِي قَوْلِهِ [ﷺ]: «**اغْفِرْ لِي جِدِّي، وَهَزْلِي، وَخَطَئِي، وَعَمْدِي، وَكُلُّ ذَلِكَ عِنْدِي**»[(١)] »[(٢)].

وَمَتَى شَهِدَ العَبْدُ فَقْرَ النَّاسِ إِلَى اللهِ مِن جَمِيعِ الوُجُوهِ، لَم يَفْتَقِر إِلَيهِم، وَلَم يُعَلِّق أَمَلَهُ وَرَجَاءَهُ بِهِم، وَهَذَا هُوَ العَبْدُ الحَقِيقِيُّ، «فَإِنَّهُ لَا يَزَالُ يَشْهَدُ فَقْرَهُ فِي كُلِّ حَالٍ مِن أُمُورِ دِينِهِ وَدُنْيَاهُ، وَيَتَضَرَّعُ لَهُ وَيَسْأَلُهُ أَن لَا يَكِلَهُ إِلَى نَفْسِهِ طَرْفَةَ عَينٍ، وَأَن يُعِينَهُ عَلَى جَمِيعِ أُمُورِهِ؛ وَيَسْتَصْحِبُ هَذَا المَعْنَى فِي كُلِّ وَقتٍ، فَهَذَا حَرِيٌّ بِالإِعَانَةِ التَّامَّةِ مِن رَبِّهِ وَإِلَهِهِ، الَّذِي هُوَ أَرْحَمُ بِهِ مِنَ الوَالِدَةِ بِوَلَدِهَا»[(٣)]. فَمَا أَغْنَاهُ حِينَئِذٍ مِن فَقِيرٍ! وَمَا أَعَزَّهُ مِن ذَلِيلٍ! وَمَا أَقْوَاهُ مِن ضَعِيفٍ! وَمَا آنَسَهُ مِن وَحِيدٍ! فَهُوَ الغَنِيُّ بِلَا مَالٍ، القَوِيُّ بِلَا

---

(١) أخرجه البخاري (٦٣٩٨)، ومسلم (٢٧١٩) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.
(٢) «زاد المعاد في هدي خير العباد» (٢/ ٤٧٥).
(٣) «تيسير الكريم الرحمن» (ص٩٦١).

سُلطَانٍ، العَزِيزُ بِلَا عَشِيرَةٍ، المَكفِيُّ بِلَا عَتَادٍ[(١)]. افتَقَرَ إِلَى اللهِ فَأَغنَاهُ عَنهُم، وَذَلَّ للهِ فَأَعَزَّهُ فِيهِم، وَتَوَاضَعَ للهِ فَرَفَعَهُ بَينَهُم، وَاستَغنَى بِاللهِ فَأَحوَجَهُم إِلَيهِ[(٢)]. قَد تَمَّ لَهُ غِنَاهُ بِالإِلَهِ الحَقِّ، وَصَارَ مِن أَغنَى العِبَادِ. وَلِسَانُ حَالِ مِثلِ هَذَا يَقُولُ:

غَنِيتُ بِلَا مَالٍ عَنِ النَّاسِ كُلِّهِم
وَإِنَّ الغِنَى العَالِي عَنِ الشَّيءِ لَا بِهِ[(٣)]

وَمُرَادُهُ: غَنِيٌّ بِاللهِ عَنِ النَّاسِ.

فَيَا لَهُ مِن غِنًى! مَا أَعظَمَ خَطَرَهُ! وَأَجَلَّ قَدرَهُ![(٤)]

وَيَا لَهُ مِن «قَلبٍ يَرَى الفَقرَ غِنًى مَعَ اللهِ، وَالغِنَى فَقرًا دُونَ اللهِ، وَالعِزَّ ذُلًّا دُونَهُ، وَالذُّلَّ عِزًّا مَعَه»[(٥)].

---

(١) «طريق الهجرتين» (ص٥٩).
(٢) «تهذيب المدارج» (ص٩٨١ - ٩٨٢).
(٣) «مفتاح دار السعادة» (١/ ٤١٩).
(٤) «طريق الهجرتين» (ص٧٩).
(٥) «فوائد الفوائد» (ص٢٧٨).

لَا يَفرَحُ بِمَوجُودٍ، وَلَا يَأسَى عَلَى مَفقُودٍ. وَلَا يَستَغنِي بِرُتبَةٍ شَرِيفَةٍ، وَإِن عَظُمَت عِندَهُ أَو عِندَ النَّاسِ، فَلَا يَستَغنِي إِلَّا بِاللَّهِ، وَلَا يَفتَقِرُ إِلَّا إِلَى اللَّهِ، وَلَا يَفرَحُ إِلَّا بِمُوَافَقَتِهِ لِمَرضَاةِ اللَّهِ، وَلَا يَحزَنُ إِلَّا عَلَى مَا فَاتَهُ مِنَ اللَّهِ، وَلَا يَخَافُ إِلَّا أَن يَفُوتَهُ رِضَا اللَّهِ، وَسَيرُهُ دَائِمًا إِلَى اللَّهِ، فَكُلُّهُ بِاللَّهِ، أَي: مُستَعِينًا بِهِ، وَكُلُّهُ لِلَّهِ، أَي: أَعمَالُهُ لِوَجهِ اللَّهِ الكَرِيمِ، وَكُلُّهُ مَعَ اللَّهِ.

وَلِسَانُ حَالِهِ يَقُولُ: «إِنَّمَا أُرِيدُ مَن إِذَا حَصَلَ لِي، حَصَلَ لِي كُلُّ شَيءٍ، وَإِذَا فَاتَنِي، فَاتَنِي كُلُّ شَيءٍ»[1].

فَمَا أَطيَبَ عَيشَهُ! وَمَا أَنعَمَ بَالَهُ! وَمَا أَقَرَّ عَينَهُ!

«وَالسَّالِكُ بِهَذِهِ الطَّرِيقِ غَرِيبٌ فِي النَّاسِ، وَهُوَ فِي وَادٍ وَهُم فِي وَادٍ، فَاللَّهُ المُستَعَانُ، وَهُوَ خَيرُ الغَافِرِينَ»[2].

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٣٥٩).
(٢) «تهذيب المدارج» (ص٣٦٨).

وَهَذِهِ المَرتَبَةُ العَالِيَةُ: كُلٌّ يُحِبُّ الوُصُولَ إِلَيهَا وَالاتِّصَافَ بِهَا، وَلَكِنَّ أَكثَرَ الخَلقِ مُتَخَلِّفٌ عَنهَا، غَيرُ عَامِلٍ بِالأَسبَابِ المُوصِلَةِ إِلَيهَا.

وَالأَسبَابُ الَّتِي تُنَالُ بِهَا هَذِهِ المَرتَبَةُ الجَلِيلَةُ: كَثِيرَةٌ وَمُتَنَوِّعَةٌ، هَذَا أَوَانُ سَردِهَا فَأَلقِ سَمعَكَ، وَأَحضِر قَلبَكَ، وَتَأَمَّلهَا تَأَمُّلَ طَالِبٍ لِلحَقِّ عَامِلٍ بِهِ:

أ- التَّفَرُّغُ لِعِبَادَةِ اللَّهِ: عَن مَعقِلِ بنِ يَسَارٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**يَقُولُ رَبُّكُم** تبارك وتعالى: **يَا ابنَ آدَمَ! تَفَرَّغ لِعِبَادَتِي، أَملأ قَلبَكَ غِنًى، وَأَملأ يَدَيكَ رِزقًا؛ يَا ابنَ آدَمَ! لَا تَبَاعَد مِنِّي، فَأَملأ قَلبَكَ فَقرًا، وَأَملأ يَدَيكَ شُغلًا**»[1].

فَفِي هَذَا الحَدِيثِ الشَّرِيفِ: أَخبَرَ النَّاطِقُ بِالوَحيِ رَسُولُنَا الكَرِيمُ ﷺ عَن وَعدِ اللَّهِ، الَّذِي لَيسَ أَحَدٌ أَوفَى بِعَهدِهِ مِنهُ؛ بِثَمَرَتَينِ لِمَن تَفَرَّغَ لِعِبَادَتِهِ

(١) رواه الحاكم (٤/ ٣٢٦ رقم ٧٩٢٦)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح الترغيب والترهيب» (٣١٦٥).

تَعَالَى، وَهُمَا: مَلؤُهُ تَعَالَى قَلبَهُ بِالغِنَى، وَيَدَيهِ بِالرِّزقِ.

كَمَا نَبَّهَ عَلَى تَهدِيدِ العَزِيزِ ذِي الانتِقَامِ، لِمَن بَاعَدَ عَنهُ بِعُقُوبَتَينِ، وَهُمَا: مَلؤُهُ تَعَالَى قَلبَهُ فَقرًا، وَيَدَيهِ شُغلًا.

وَمِنَ المَعلُومِ: أَنَّ مَن أَغنَى قَلبَهُ المُغنِي جَلَّ جَلَالُهُ، فَلَا يَقرَبُ مِنهُ الفَقرُ أَبَدًا؛ وَمَن مَلَأَ الرَّزَّاقُ ذُو القُوَّةِ المَتِينُ يَدَيهِ رِزقًا، فَلَا يُفلِسُ أَبَدًا؛ وَمَن مَلَأَ القَادِرُ المُقتَدِرُ، المَلِكُ العَزِيزُ قَلبَهُ فَقرًا، فَلَا أَحَدَ يَستَطِيعُ إِغنَاءَهُ؛ وَمَن أَشغَلَهُ الجَبَّارُ القَهَّارُ، فَلَا أَحَدَ يَستَطِيعُ مَنحَهُ الفَرَاغَ(١).

فَمَن أَغنَى اللَّهُ قَلبَهُ، زَالَت عَنهُ كُلُّ حَسرَةٍ، وَحَضَرَهُ كُلُّ سُرُورٍ وَفَرَحٍ. وَمَن لَم يَستَغنِ بِاللَّهِ عَمَّا سِوَاهُ، تَقَطَّعَت نَفسُهُ عَلَى الدُّنيَا حَسَرَاتٍ.

وَهَكَذَا كُلَّمَا بَعُدَتِ القُلُوبُ عَن رَبِّهَا، كُلَّمَا زَادَ شُعُورُهَا بِالضِّيقِ وَالفَقرِ وَالحَاجَةِ، وَلَو جُمِعَت

(١) «مفاتيح الرزق» (ص٤٥).

لَهَا مُتَعُ الدُّنيَا بِحَذَافِيرِهَا؛ فَإِنَّهَا لَا تُغنِيهَا، بَل تَزِيدُهَا ضَنكًا وَفَقرًا، وَفِي نَفسِ الوَقتِ: تَمتَلِئُ الأَيدِي شُغلًا بِاللَّيلِ وَالنَّهَارِ، وَلَهثًا وَرَاءَ الدُّنيَا.

«وَمُحِبُّ الدُّنيَا لَا يَنفَكُّ مِن ثَلَاثٍ: هَمٍّ لَازِمٍ، وَتَعَبٍ دَائِمٍ، وَحَسرَةٍ لَا تَنقَضِي. وَذَلِكَ أَنَّ مُحِبَّهَا لَا يَنَالُ مِنهَا شَيئًا إِلَّا طَمَحَت نَفسُهُ إِلَى مَا فَوقَهُ»(١)؛ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**لَو كَانَ لِابنِ آدَمَ وَادِيَانِ مِن مَالٍ لَابتَغَى ثَالِثًا، وَلَا يَملَأُ جَوفَ ابنِ آدَمَ إِلَّا التُّرَابُ، وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَن تَابَ**»(٢).

فَهُوَ فِي فَقرٍ مُستَمِرٍّ غَيرِ مُنتَقَضٍ، وَلَو مَلَكَ خَزَائِنَ الأَرضِ، وَلَو أُعطِيَ الدُّنيَا وَمَا فِيهَا، فَفَقرُهُ وَطَلَبُهُ وَحِرصُهُ بَاقٍ عَلَيهِ؛ فَإِنَّهُ أَحَدُ المُنهَمِينَ الَّذِينَ لَا يَشبَعَانِ، فَهُوَ لَا يُفَارِقُهُ أَلَمُ الحِرصِ وَالطَّلَبِ(٣).

(١) «موارد الأمان» (ص٨٤).
(٢) رواه البخاري (٦٤٣٦)، ومسلم (١٠٤٩).
(٣) «مفتاح دار السعادة» (١/ ٤٢٤).

عَن أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَنهُومَانِ لَا يَشبَعَانِ: مَنهُومٌ فِي عِلمٍ لَا يَشبَعُ، وَمَنهُومٌ فِي دُنيَا لَا يَشبَعُ**»(١).

فَالأَوَّلُ: قَلبٌ امتَلأَ بِأَعلَى الأَغذِيَةِ وَأَشرَفِهَا، فَإِنَّهُ لَا يَلتَفِتُ إِلَى مَا دُونَهَا؛ وَالثَّانِي: قَلبٌ جَائِعٌ غَيرُ شَبعَانَ، فَإِذَا رَأَى أَيَّ طَعَامٍ، هَفَت إِلَيهِ نَوَازِعُهُ، وَانبَعَثَت إِلَيهِ دَوَاعِيهِ(٢).

ب- هَمُّ الآخِرَةِ: عَن زَيدِ بنِ ثَابِتٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَن كَانَتِ الدُّنيَا هَمَّهُ، فَرَّقَ اللهُ عَلَيهِ أَمرَهُ، وَجَعَلَ فَقرَهُ بَينَ عَينَيهِ، وَلَم يَأتِهِ مِنَ الدُّنيَا إِلَّا مَا كُتِبَ لَهُ؛ وَمَن كَانَتِ الآخِرَةُ نِيَّتَهُ، جَمَعَ اللهُ لَهُ أَمرَهُ، وَجَعَلَ غِنَاهُ فِي قَلبِهِ، وَأَتَتهُ الدُّنيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ**»(٣).

---

(١) رواه الحاكم (١/ ٩١ - ٩٢ رقم ٣١٢)، وصححه لغيره الألباني رحمه الله في «التعليق على هداية الرواة» (١/ ١٦٩).
(٢) انظر: «تهذيب المدارج» (ص٦٧٤).
(٣) رواه ابن ماجه (٤١٠٥)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن ابن ماجه» (٣٣١٣).

فمَن طَلَبَ الآخِرَةَ يَأتِيهِ مَا كُتِبَ لَهُ مِنَ الرِّزقِ بِلَا تَعَبٍ، وَمَن طَلَبَ الدُّنيَا يَأتِيهِ بِتَعَبٍ وَشِدَّةٍ؛ فَطَالِبُ الآخِرَةِ قَد جَمَعَ بَينَ الدُّنيَا وَالآخِرَةِ، فَإِنَّ المَطلُوبَ مِن جَمعِ المَالِ الرَّاحَةُ فِي الدُّنيَا، وَقَد حَصَلَت لِطَالِبِ الآخِرَةِ؛ وَطَالِبُ الدُّنيَا قَد خَسِرَ الدُّنيَا وَالآخِرَةَ، لِأَنَّهُ فِي الدُّنيَا فِي التَّعَبِ الشَّدِيدِ فِي طَلَبِهَا، فَأَيُّ فَائِدَةٍ لَهُ فِي المَالِ إِذَا فَاتَتِ الرَّاحَةُ؟!(١).

وَمِن أَبلَغِ العَذَابِ فِي الدُّنيَا: تَشتِيتُ الشَّملِ، وَتَفرِيقُ القَلبِ، وَكَونُ الفَقرِ نُصبَ عَينَيِ العَبدِ لَا يُفَارِقُهُ(٢).

فَمَن كَانَ فَقرُهُ بَينَ عَينَيهِ، لَم يَزَل خَائِفًا مِنَ الفَقرِ، لَا يَستَغنِي قَلبُهُ بِشَيءٍ، وَلَا يَشبَعُ مِنَ الدُّنيَا؛ وَمَن كَانَ الغِنَى فِي قَلبِهِ، فَلَا يَضُرُّهُ مَا لَقِيَ مِنَ الدُّنيَا(٣).

---

(١) «حاشية السندي على سنن ابن ماجه» (٢/ ٥٢٥)، بتصرُّف يسير.
(٢) «موارد الأمان» (ص٨٣).
(٣) «لطائف المعارف» (ص٥٣٧).

وَإِذَا كَانَ هَذَا غِنَى مَن كَانَتِ الآخِرَةُ هَمَّهُ، فَكَيفَ مَن كَانَ اللهُ أَكبَرَ هَمِّهِ؟![١]

ج- **الرِّضَى بِمَا قَسَمَ اللهُ**: عَن أَبِي هُرَيرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَن يَأخُذُ عَنِّي هَؤُلَاءِ الكَلِمَاتِ، فَيَعمَلُ بِهِنَّ، أَو يُعَلِّمُ مَن يَعمَلُ بِهِنَّ؟**» فَقَالَ أَبُو هُرَيرَةَ: فَقُلتُ: أَنَا يَا رَسُولَ اللهِ، فَأَخَذَ بِيَدِي فَعَدَّ خَمسًا، وَقَالَ: «**اتَّقِ المَحَارِمَ تَكُن أَعبَدَ النَّاسِ، وَارضَ بِمَا قَسَمَ اللهُ لَكَ تَكُن أَغنَى النَّاسِ، وَأَحسِن إِلَى جَارِكَ تَكُن مُؤمِنًا، وَأَحِبَّ لِلنَّاسِ مَا تُحِبُّ لِنَفسِكَ تَكُن مُسلِمًا، وَلَا تُكثِرِ الضَّحِكَ، فَإِنَّ كَثرَةَ الضَّحِكِ تُمِيتُ القَلبَ**»[٢].

قَولُهُ: «**قَسَمَ اللهُ**»، أَي: اقنَع بِنَصِيبِكَ مِنَ الدُّنيَا تَكُن أَغنَى النَّاسِ، فَالقَنَاعَةُ كَنزٌ لَا يَفنَى، وَغِنًى بِلَا

(١) «طريق الهجرتين» (ص٩١).
(٢) رواه الترمذي (٢٣٠٥)، وحسنه لغيره الألباني رحمه الله في «الصحيحة» (٩٣٠).

مَالٍ، وَفِي القَنَاعَةِ رَاحَةٌ لِلقَلبِ وَالبَالِ؛ وَقَد ذُكِرَ عَنِ الإِمَامِ مُحَمَّدِ بنِ إِدرِيسَ الشَّافِعِيِّ رحمه الله:

إِذَا مَا كُنتَ ذَا قَلبٍ قَنُوعٍ
فَأَنتَ وَمَالِكُ الدُّنيَا سَوَاءُ[١]

فَالرِّضَى بِالرِّزقِ المَقسُومِ رَاحَةٌ لِلنَّفسِ، وَطُمَأنِينَةٌ لِلقَلبِ، بَل هُوَ السَّعَادَةُ نَفسُهَا، لِأَنَّ السَّعَادَةَ الحَقِيقِيَّةَ لَيسَت بِالأَملَاكِ وَالقُصُورِ، وَلَا بِالذَّهَبِ وَالفِضَّةِ، وَلَا بِالمَتَاعِ وَالرِّيَاشِ، إِنَّمَا هِيَ فِي تَقوَى اللهِ وَغِنَى النَّفسِ، وَلَقَد أَحسَنَ مَن قَالَ:

وَلَستُ أَرَى السَّعَادَةَ جَمعَ مَالٍ
وَلَكِنَّ التَّقِيَّ هُوَ السَّعِيدُ
وَتَقوَى اللهِ خَيرُ الزَّادِ ذُخرًا
وَعِندَ اللهِ لِلأَتقَى مَزِيدُ[٢]

(١) «ديوان الشافعي» (ص١٧)، جمعه وعلَّق عليه: محمد عفيف الزُّعبي.
(٢) «ديوان الحُطَيئة» (ص٦).



عَن أَبِي هُرَيرَةَ رضي الله عنه: عَن رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**سَأَلَ مُوسَى رَبَّهُ قَالَ: فَأَيُّ عِبَادِكَ أَغنَى؟ قَالَ: الَّذِي يَرضَى بِمَا يُؤتَى**»(١).

وَهَذَا الرِّضَا: هُوَ بِحَسَبِ مَعرِفَتِهِ بِعَدلِ اللَّهِ وَحِكمَتِهِ، وَرَحمَتِهِ وَحُسنِ اختِيَارِهِ، فَكُلَّمَا كَانَ بِذَلِكَ أَعرَفَ، كَانَ بِهِ أَرضَى؛ فَقَضَاءُ الرَّبِّ سُبحَانَهُ فِي عَبدِهِ دَائِرٌ بَينَ العَدلِ وَالمَصلَحَةِ، وَالحِكمَةِ وَالرَّحمَةِ، لَا يَخرُجُ عَن ذَلِكَ البَتَّةَ(٢).

د- **الدُّعَاءُ**: إِنَّ فِي الدُّعَاءِ إِظهَارًا لِمَرتَبَةِ العُبُودِيَّةِ وَالفَقرِ وَالحَاجَةِ، وَاعتِرَافًا بِغِنَى الرَّبِّ، وَتَفَرُّدِهِ بِالفَضلِ وَالإِحسَانِ، وَأَنَّ العَبدَ لَا غِنَى لَهُ عَن فَضلِهِ طَرفَةَ عَينٍ(٣).

(١) قطعة من حديث: أخرجه ابن حبان (٦٢١٧)، وحسنه الألباني رحمه الله في «الصحيحة» (٣٣٥٠).
(٢) «فوائد الفوائد» (ص١٧٢).
(٣) «تهذيب المدارج» (ص٨٦٩).

١-«**اللَّهُمَّ! اكفِنِي بِحَلَالِكَ عَن حَرَامِكَ، وَأَغنِنِي بِفَضلِكَ عَمَّن سِوَاكَ**»(١).

وَقَولُهُ: «**وَأَغنِنِي بِفَضلِكَ عَمَّن سِوَاكَ**» أَي: وَاجعَل فَضلَكَ - وَهُوَ مَا تَمُنُّ بِهِ عَلَيَّ مِن نِعمَةٍ وَخَيرٍ وَرِزقٍ - مُغنِيًا لِي عَمَّن سِوَاكَ، فَلَا أَفتَقِرُ إِلَى غَيرِكَ، وَلَا أَلتَجِئُ إِلَى أَحَدٍ سِوَاكَ.

٢- «**اللَّهُمَّ مَالِكَ المُلكِ، تُؤتِي المُلكَ مَن تَشَاءُ، وَتَنزِعُ المُلكَ مِمَّن تَشَاءُ، وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ، وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ، بِيَدِكَ الخَيرُ، إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ؛ رَحمَنَ الدُّنيَا وَالآخِرَةِ وَرَحِيمَهُمَا، تُعطِيهِمَا مَن تَشَاءُ، وَتَمنَعُ مِنهُمَا مَن تَشَاءُ، ارحَمنِي رَحمَةً: تُغنِينِي بِهَا عَن رَحمَةِ مَن سِوَاكَ**»(٢).

(١) رواه الترمذي (٣٥٦٣)، وحسنه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن الترمذي» (٢٨٢٢).
(٢) رواه الطبراني في «الصغير» (٥٥٨)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح الترغيب والترهيب» (١٨٢١).

٣- عَنِ ابنِ مَسعُودٍ رضي الله عنه: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَقُولُ: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَسأَلُكَ الهُدَى، وَالتُّقَى، وَالعَفَافَ، وَالغِنَى**»(١).

«**الغِنَى**» المُرَادُ بِهِ: الغِنَى عَمَّا سِوَى اللهِ؛ أَي: الغَنِيُّ عَنِ الخَلقِ، بِحَيثُ لَا يَفتَقِرُ الإِنسَانُ إِلَى أَحَدٍ سِوَى رَبِّهِ عز وجل.

وَالإِنسَانُ إِذَا وَفَّقَهُ اللهُ، وَمَنَّ عَلَيهِ بِالِاستِغنَاءِ عَنِ الخَلقِ، صَارَ عَزِيزَ النَّفسِ غَيرَ ذَلِيلٍ؛ لِأَنَّ الحَاجَةَ إِلَى الخَلقِ ذُلٌّ وَمَهَانَةٌ، وَالحَاجَةُ إِلَى اللهِ عِزٌّ وَعِبَادَةٌ، فَهُوَ عَلَيهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَسأَلُ اللهَ عز وجل الغِنَى(٢).

وَالإِنسَانُ الَّذِي أَكرَمَهُ اللهُ بِالغِنَى وَالتَّعَفُّفِ، لَا يَعرِفُ قَدرَ السُّؤَالِ إِلَّا إِذَا ذَلَّ أَمَامَ المَخلُوقِ، كَيفَ تَمُدُّ يَدَكَ إِلَى مَخلُوقٍ، وَتَقُولُ لَهُ: أَعطِنِي، وَأَنتَ مِثلُهُ؟!(٣).

(١) رواه مسلم (٢٧٢١).
(٢) «شرح رياض الصالحين» (١/ ٥٢٩).
(٣) «شرح رياض الصالحين» (١/ ٣٠٨).

عَن أَبِي هُرَيرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَيسَ الغِنَى عَن كَثرَةِ العَرَضِ، وَلَكِنَّ الغِنَى غِنَى النَّفسِ**»(١).

العَرَضُ: وَهُوَ مَتَاعُ الدُّنيَا. وَمِنهُ قَولُهُ سبحانه وتعالى: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنۡيَا﴾ [الأنفال: ٦٧].

وَالغِنَى المَحمُودُ: هُوَ غِنَى النَّفسِ، وَشِبَعُهَا، وَقِلَّةُ حِرصِهَا، لَا كَثرَةُ المَالِ، مَعَ الحِرصِ عَلَى الزِّيَادَةِ؛ لِأَنَّ مَن كَانَ طَالِبًا لِلزِّيَادَةِ، لَم يَستَغنِ بِمَا مَعَهُ، فَلَيسَ لَهُ غِنًى.

وَمَعنَى هَذَا الحَدِيثِ: أَنَّ الغِنَى النَّافِعَ، أَو العَظِيمَ أَو المَمدُوحَ: هُوَ غِنَى النَّفسِ. وَبَيَانُهُ: أَنَّهُ إِذَا استَغنَت نَفسُهُ، كَفَّت عَنِ المَطَامِعِ، فَعَزَّت وَعَظُمَت، فَجَعَلَ لَهَا مِنَ الحُظوَةِ، وَالنَّزَاهَةِ، وَالتَّشرِيفِ، وَالمَدحِ: أَكثَرَ مِمَّن كَانَ غَنِيًّا بِمَالِهِ، فَقِيرًا بِحِرصِهِ

(١) رواه البخاري (٦٤٤٦)، ومسلم (١٠٥١).

وَشَـرَهِـهِ؛ فَـإِنَّ ذَلِـكَ يُـوَرِّطُـهُ فِـي رَذَائِـلِ الأُمُـورِ، وَخَسَائِسِ الأَفعَالِ، لِبُخلِهِ وَدَنَاءَةِ هِمَّتِهِ، فَيَكثُرُ ذَامُّهُ مِنَ النَّاسِ، وَيَصغُرُ قَدرُهُ فِيهِم، وَيَكُونُ أَحقَرَ مِن كُلِّ حَقِيرٍ، وَأَذَلَّ مِن كُلِّ صَغِيرٍ[1].

فَعُلِمَ بِهَذَا الحَدِيثِ الشَّرِيفِ: أَنَّ المَدَارَ كُلَّهُ عَلَى مَا فِي القُلُوبِ: مِنَ الأَوصَافِ الطَّيِّبَةِ أَوِ الدَّنِيئَةِ فِي حَقِّ الغَنِيِّ وَالفَقِيرِ، فَمَن كَانَ قَلبُهُ غَنِيًّا بِاللهِ، فَهُوَ الغَنِيُّ حَقِيقَةً، وَلَو كَانَ فَقِيرًا. وَمَن كَانَ قَلبُهُ فَقِيرًا إِلَى الأَغرَاضِ، وَإِلَى الخَلقِ، فَهُوَ الفَقِيرُ حَقِيقَةً، وَلَو كَانَ ثَرِيًّا[2].

قَالَ مَحمُودٌ الوَرَّاقُ رَحِمَهُ اللهُ:

الفَقرُ فِي النَّفسِ وَفِيهَا الغِنَى
وَفِي غِنَى النَّفسِ الغِنَى الأَكبَرُ[3]

(١) «المفهم» (٣/ ٩٥).
(٢) «المجموعة الكاملة» (٥/ ٥٢٠).
(٣) «صحيح جامع بيان العلم وفضله» (ص ٢٧٢).

قَالَ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللهُ:

فَيَغنَى غَنِيُّ النَّفسِ إِن قَلَّ مَالُهُ
وَيَغنَى فَقِيرُ النَّفسِ وَهوَ ذَلِيلُ[1]

وَهَذَا هُوَ الغِنَى العَالِي، كَمَا قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَيسَ الغِنَى عَن ظَهرٍ، إِنَّمَا الغِنَى غِنَى النَّفسِ؛ وَإِذَا أَرَادَ اللهُ بِعَبدٍ خَيرًا، جَعَلَ غِنَاهُ فِي نَفسِهِ، وَتُقَاهُ فِي قَلبِهِ؛ وَإِذَا أَرَادَ اللهُ بِعَبدٍ شَرًّا، جَعَلَ فَقرَهُ بَينَ عَينَيهِ**»[2].

فَغِنَى النَّفسِ بِاللهِ: هُوَ الغِنَى، وَغِنَاهَا بِمَالِهَا: هُوَ الفَقرُ.

قَالَ عُثمَانُ بنُ سَعدَانَ المَوصِلِيُّ:

تَقَنَّع بِمَا يَكفِيكَ وَاستَعمِلِ الرِّضَا
فَإِنَّكَ لَا تَدرِي أَتُصبِحُ أَم تُمسِي

(١) أخرجه البيهقي في «مناقب الشافعي» (٢/ ١٠٦).
(٢) قطعة من حديث: رواه ابن حبان (٦٢١٧)، وحسنه الألباني رَحِمَهُ اللهُ في «الصحيحة» (٣٣٥٠).

فَلَيسَ الغِنَى عَن كَثرَةِ المَالِ إِنَّمَا
يَكُونُ الغِنَى وَالفَقرُ مِن قِبَلِ النَّفسِ(١)

وَقَالَ أَبُو الفَتحِ البُستِيُّ:

وَذُو القَنَاعَةِ رَاضٍ مِن مَعِيشَتِهِ
وَصَاحِبُ الحِرصِ إِن أَثرَى(٢) فَغَضبَانُ!(٣)

وَمَا أَحسَنَ قَولَ القَائِلِ:

غِنَى النَّفسِ مَا يَكفِيكَ مِن سَدِّ حَاجَةٍ
فَإِن زَادَ شَيئًا عَادَ ذَاكَ الغِنَى فَقرًا(٤)

---

(١) «صحيح جامع بيان العلم وفضله» (ص٢٧٢).
(٢) «أثرى: زاد ماله وكثر. وقوله: وصاحب الحرص إن أثرى فغضبان. وذلك لطمعه المتزايد، فيرى نفسه دائمًا في حاجة إلى المزيد من الثراء، ويغضب إذا لم ينل ذلك».
أفاده محمد سيِّد أحمد (المدرِّس بدار الحديث الخيرية بمكة المكرمة): في تعليقه على مؤلَّفه «كفاية الإنسان من القصائد الغرر الحسان» (ص٨٢).
(٣) «قصيدة عنوان الحكم» (ص٤١) [مكتب المطبوعات الإسلامية - حلب].
(٤) «فتح الباري» (١١/ ٢٧٧). وجزم المرزوقي في «شرح ديوان الحماسة» (٣/ ١١٤٣): بنسبته لسالم بن وابِصة.

وَقَالَ الشَّيخُ عَبدُ العَزِيزِ بنُ حَمَدِ بنِ نَاصِرٍ:

فَمَا العِزُّ إِلَّا فِي القَنَاعَةِ وَالرِّضَى
بِأَدنَى كَفَافٍ حَاصِلٍ وَالتَّزَهُّدِ
فَمَن لَا يُقنِعهُ الكَفَافُ فَمَا إِلَى
رِضَاهُ سَبِيلٌ فَاقتَنِع وَتَقَصَّدِ
فَمَن يَتَغَنَّى يُغنِهِ اللهُ وَالغِنَى
غِنَى النَّفسِ لَا عَن كَثرَةِ المُتَعَدِّدِ(١)

وَقَالَ مَحمُودٌ الوَرَّاقُ رَحِمَهُ اللهُ:

غِنَى النَّفسِ يُغنِيهَا إِذَا كُنتَ قَانِعًا
وَلَيسَ يُغنِيكَ الكَثِيرُ مَعَ الحِرصِ(٢)

وَعَن أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللهُ عَنهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**يَا أَبَا ذَرٍّ! أَتَرَى كَثرَةَ المَالِ هُوَ الغِنَى؟**» قُلتُ: نَعَم

---

(١) «دعوة إلى الأخلاق الفاضلة»: ضمن «كفاية الإنسان من القصائد الغرر الحسان» (ص١٠١).
(٢) «صحيح جامع بيان العلم وفضله» (ص ٢٧٢).

يَا رَسُولَ اللهِ. قَالَ: «**فَتَرَى قِلَّةَ المَالِ هُوَ الفَقرَ؟**» قُلتُ: نَعَم يَا رَسُولَ اللهِ. قَالَ [ﷺ]: «**إِنَّمَا الغِنَى غِنَى القَلبِ، وَالفَقرُ فَقرُ القَلبِ**»[١].

مُخطِئٌ مَن يَظُنُّ أَنَّ الفَقرَ هُوَ فَقرُ الجُيُوبِ، وَإِنَّمَا الفَقرُ هُوَ فَقرُ القُلُوبِ.

مَن كَانَ الغِنَى فِي قَلبِهِ فَلَا يَضُرُّهُ مَا لَقِيَ مِنَ الدُّنيَا، وَمَن كَانَ الفَقرُ فِي قَلبِهِ فَلَا يُغنِيهِ مَالُ الدُّنيَا. فَمَن مَلَكَ الدُّنيَا بِحَذَافِيرِهَا، وَلَم يَرزُقهُ اللهُ غِنَى النَّفسِ، شَعَرَ بِأَنَّهُ أَفقَرُ النَّاسِ عَلَى وَجهِ الإِطلَاقِ.

قَالَ أَبُو العَتَاهِيَةِ رَحِمَهُ اللهُ:

إِذَا كَانَ لَا يُغنِيكَ مَا يَكفِيكَا
فَكُلُّ مَا فِي الدُّنيَا لَا يُغنِيكَا[٢]

رُبَّ غَنِيٍّ أَفقَرُ مِن فَقِيرٍ، وَرُبَّ فَقِيرٍ أَغنَى مِن

(١) قطعة من حديث: أخرجه ابن حبان (٦٨٥)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح الترغيب والترهيب» (٨٢٧).
(٢) «صحيح جامع بيان العلم وفضله» (ص٢٧٠).

كُلِّ غَنِيٍّ.

وَقَالَ بَكرُ بنُ أَبِي أُذَينَةَ:

كَم مِن فَقِيرٍ غَنِيِّ النَّفسِ تَعرِفُهُ
وَمِن غَنِيٍّ فَقِيرِ النَّفسِ مِسكِينِ[١]

فَكَم مِن صَاحِبِ ثَروَةٍ وَقَلبُهُ فَقِيرٌ مُتَحَسِّرٌ، لَا يَشبَعُ، تَجِدُ قَلبَهُ دَائِمًا مُتَعَلِّقًا بِالدُّنيَا، دَائِمًا قَلبُهُ لَا يَستَرِيحُ وَلَا يَطمَئِنُّ، لَا فِي نَومِهِ، وَلَا فِي أَكلِهِ، وَلَا شُربِهِ، وَلَا فِي جُلُوسِهِ مَعَ أَهلِهِ، لِأَنَّ قَلبَهُ فَقِيرٌ، وَإِن كَانَ عِندَهُ أَموَالٌ كَثِيرَةٌ، «وَكَم مِن فَقِيرِ ذَاتِ اليَدِ، وَقَلبُهُ غَنِيٌّ رَاضٍ، قَانِعٌ بِرِزقِ اللهِ»[٢]. تَجِدُهُ مُرتَاحًا فِي بَيتِهِ، وَمَعَ أَهلِهِ، وَمَعَ أَولَادِهِ، وَمَعَ أَقَارِبِهِ، وَمَعَ وَالِدَيهِ، وَأَرحَامِهِ الَّذِينَ يَصِلُهُم، فَهُوَ مُستَرِيحُ البَالِ.

«كَم مِن إِنسَانٍ خَزَائِنُهُ مَملُوءَةٌ عَامِرَةٌ، لَكِن

(١) «صحيح جامع بيان العلم وفضله» (ص٢٧٢).
(٢) «بهجة قلوب الأبرار» (ص١٣٩).

قَلبُهُ مُعدَمٌ - وَالعِيَاذُ بِاللهِ -: كَالأَرضِ الرَّملِيَّةِ لَا تُروَى مِنَ المَاءِ فَهُوَ لَا يَروَى مِنَ المَاءِ أَبَدًا، وَكَم مِن إنسَانٍ لَيسَ عِندَهُ إِلَّا شَيءٌ يَسِيرٌ جِدًّا فَهُوَ كَالزُّجَاجَةِ صَافِيَةً، وَلَا تَشرَبُ مَاءً، المَعنَى: أَنَّهُ لَا يَهتَمُّ بِشَيءٍ، قَدِ استَغنَى قَلبُهُ بِمَا فِي يَدِهِ مِن قَلِيلٍ أَو كَثِيرٍ، وَهَذَا أَمرٌ وَاضِحٌ»[1].

وَللهِ دَرُّ القَائِلِ:

إنَّ القَنَاعَةَ مَن يَحلُل بِسَاحَتِهَا
لَم يَلقَ فِي ظِلِّهَا هَمًّا يُؤَرِّقُهُ[2]

فَالعِزُّ كُلُّ العِزِّ فِي القَنَاعَةِ، وَالذُّلُّ وَالهَوَانُ فِي الحِرصِ وَالطَّمَعِ؛ ذَلِكَ أَنَّ القَانِعَ لَا يَحتَاجُ إِلَى النَّاسِ، فَلَا يَزَالُ عَزِيزًا بَينَهُم، وَالحَرِيصُ قَد يُذِلُّ

(١) «شرح بلوغ المرام» (٣/ ٩٦)، للعلَّامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ.
(٢) ذكره أبو منصور الثعالبي في «يتيمة الدهر» (٢/ ٧٠)، ونسبه لأبي بطَّال. وأورده ابن عبد البر في «بَهجة المجالس» (٣/ ٣٠٩)، ونسبه للعَطَوِيِّ؛ لكن بلفظ: «فِي دَهرِهِ»، بدل «فِي ظِلِّهَا».

نَفسَهُ مِن أَجلِ أَن يُحَصِّلَ المَزِيدَ.

وَيَقُولُ الشَّاعِرُ:

أَفَادَتنِي القَنَاعَةُ كُلَّ عِزٍّ
وَأَيُّ غِنًى أَعَزُّ مِنَ القَنَاعَةِ
فَصَيِّرهَا لِنَفسِكَ رَأسَ مَالٍ
وَصَيِّرهَا مَعَ التَّقوَى بِضَاعَةً[1]

وَقَالَ القَائِلُ:

إِنَّ القَنُوعَ نَفِيسُ النَّفسِ رَاشِدُهَا
وَهُوَ الغَنِيُّ الَّذِي يَحيَا بِلَا نَصَبِ[2]

وَقَالَ بَعضُهُم:

(١) ذكره العجلوني في «كشف الخفاء» (٢/ ١٣٤)، جازمًا بنسبته للشافعي رَحِمَهُ اللهُ. وأورده أبو إسحاق الثعلبي في تفسيره «الكشف والبيان» (٢/ ٣٩)، ولم ينسبه؛ لكن وقع عنده: «وَهَل عِزٌّ أَعَزُّ»، بدل «وَأَيُّ غِنًى أَعَزُّ».
(٢) ذكره أحمد الهاشمي في كتابه «جواهر الأدب» (٢/ ٦٦)، ولم ينسبه لأحد.

هِـيَ القَـنَـاعَـةُ فَـالـزَمـهَـا تَـعِش مَـلِـكًا
لَـو لَـم يَـكُـن مِـنـهَـا إِلَّا رَاحَـةُ البَـدَنِ[1]

فَقِيرٌ كُلُّ مَن يَطمَعُ، غَنِيٌّ كُلُّ مَن يَقنَعُ.

وَقَالَ القَائِلُ:

قَـنِّـعِ الـنَّـفـسَ بِـالـكَـفَـافِ وَإِلَّا
طَـلَـبَـت مِـنـكَ فَـوقَ مَـا يَـكـفِـيـهَـا[2]

وَلِلَّهِ دَرُّ القَائِلِ:

الـنَّـفـسُ تَـجـزَعُ أَن تَـكُـونَ فَـقِـيـرَةً
وَالـفَـقـرُ خَـيـرٌ مِـن غِـنًـى يُـطـغِـيـهَـا
وَغِنَى النُّفُوسِ هُوَ الكَفَافُ فَإِن أَبَت
فَجَمِيعُ مَا فِي الأَرضِ لَا يَكفِيهَا[3]

لَا يُوجَدُ كَنزٌ فِي هَذَا الوُجُودِ: أَثمَنُ مِن غِنَى

(١) انظر: «غذاء الألباب شرح منظومة الآداب» (٢/ ٥٣٧)، لمؤلفه: محمد بن أحمد بن سالم السفاريني الحنبلي.
(٢) «بهجة المجالس» (٣/ ٣١٢).
(٣) «جواهر الأدب» (٢/ ٦٦).

النَّفسِ، وَغِنَى القَنَاعَةِ.

قَالَ أَبُو فِرَاسٍ الحَمَدَانِيُّ:

إِنَّ الـغَـنِـيَّ هُـوَ الـغَـنِـيُّ بِـنَـفـسِـهِ
وَلَـو أَنَّـهُ عَـارِي الـمَـنَـاكِـبِ حَـافِ
مَـا كُـلُّ مَـا فَـوقَ البَـسِـيـطَـةِ كَـافِـيًـا
فَـإِذَا قَـنِـعتَ فَـكُـلُّ شَـيءٍ كَـافِ[1]

وَلِلَّهِ دَرُّ القَائِلِ:

خُـذِ القَـنَـاعَـةَ مِـن دُنـيَـاكَ وارضَ بِـهَـا
لَـو لَـم يَـكُـن لَـكَ إِلَّا رَاحَـةُ البَـدَنِ[2]

وَأَنشَدَ عَبدُ العَزِيزِ بنُ سُلَيمَانَ الأَبرَشُ:

إِذَا الـمَـرءُ لَـم يَـقـنَـع بِـعَـيـشٍ فَـإِنَّـهُ
وَإِن كَـانَ ذَا مَـالٍ مِـنَ الـفَـقـرِ مُـوْقَـرُ

(١) «ديوان أبي فراس الحمداني» (ص٢٣٠).
(٢) «مفتاح الأفكار للتَّأَهُّب لدار القرار» (١/ ٢٢١)، تأليف: عبد العزيز المحمَّد السَّلمان.

إِذَا كَانَ فَضلُ النَّاسِ يُغنِيكَ بَينَهُم
فَأَنتَ بِفَضلِ اللهِ أَغنَى وَأَيسَرُ[١]

قَالَ أَبُو حَاتِمٍ رَحِمَهُ اللهُ: القَنَاعَةُ تَكُونُ بِالقَلبِ: فَمَن غَنِيَ قَلبُهُ غَنِيَت يَدَاهُ، وَمَنِ افتَقَرَ قَلبُهُ لَم يَنفَعهُ غِنَاهُ؛ وَمَن قَنِعَ لَم يَتَسَخَّط، وَعَاشَ آمِنًا مُطمَئِنًّا؛ وَمَن لَم يَقنَع، لَم يَكُن لَهُ فِي الفَوَائِتِ، نِهَايَةٌ لِرَغبَتِهِ[٢].

وَلِابنِ المُبَارَكِ:

لله دَرُّ القُنُوعِ مِن خُلُقٍ
كَم مِن وَضِيعٍ بِهِ قَدِ ارتَفَعَا
يَضِيقُ صَدرُ الفَتَى لِحَاجَتِهِ
وَمَن تَأَسَّى بِدُونِهِ اتَّسَعَا[٣]

وَقَالَ مَحمُودٌ الوَرَّاقُ:

---

(١) «روضة العقلاء» (ص١٥١).
(٢) المصدر السابق.
(٣) «بهجة المجالس» (٣/ ٣٠٤).

إِنَّ القَنَاعَةَ مَا عَلِمتُ غِنًى
وَالحِرصُ يُورِثُ ذَا الغِنَى فَقرًا[١]

عَن عَبدِ اللهِ بنِ عَمرِو بنِ العَاصِ رضي الله عنهما: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**قَد أَفلَحَ مَن أَسلَمَ، وَرُزِقَ كَفَافًا، وَقَنَّعَهُ اللهُ بِمَا آتَاهُ**»[٢]. أَي: جَعَلَهُ قَانِعًا بِمَا أَعطَاهُ إِيَّاهُ، وَلَم يَطلُبِ الزِّيَادَةَ لِمَعرِفَتِهِ: أَنَّ رِزقَهُ مَقسُومٌ، لَن يَعدُوَ مَا قُدِّرَ لَهُ[٣].

عَنِ ابنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: أَنَّهُ قَالَ لَهُ رَجُلٌ: رَجُلٌ قَلِيلُ العَمَلِ، قَلِيلُ الذُّنُوبِ، أَعجَبُ إِلَيكَ؟ أَو: رَجُلٌ كَثِيرُ العَمَلِ، كَثِيرُ الذُّنُوبِ؟ قَالَ: لَا أَعدِلُ بِالسَّلَامَةِ - يَعنِي: شَيئًا -[٤].

فَمَن حَصَلَ لَهُ مَا يَكفِيهِ، وَاقتَنَعَ بِهِ: أَمِنَ مِن

---

(١) «بهجة المجالس» (٣/ ٣١١).
(٢) رواه مسلم (١٠٥٤).
(٣) «فيض القدير» (٨/ ٤٣٤٥).
(٤) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (رقم: ٦٦)، وصححه الحافظ في «الفتح» (١١/ ٢٧٩).

آفَاتِ الغِنَى، وَآفَاتِ الفَقرِ.

قَالَ الحُطَيئَةُ:

يَقُولُونَ يَستَغنِي وَوَاللَّهِ مَا الغِنَى
مِنَ المَالِ إِلَّا مَا يُعِفُّ وَمَا يَكفِي[١]

ه- الاِستِغنَاءُ عَمَّا فِي أَيدِي النَّاسِ: عَن حَكِيمِ ابنِ حِزَامٍ رضي الله عنه: عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «... **وَمَن يَستَغنِ، يُغنِهِ اللَّهُ**»[٢].

أَي: مَن يَستَغنِ بِمَا عِندَ اللَّهِ، عَمَّا فِي أَيدِي النَّاسِ، وَالتَّعَفُّفِ عَنِ السُّؤَالِ، حَتَّى يَحسَبَهُ الجَاهِلُ غَنِيًّا مِنَ التَّعَفُّفِ، يُغنِهِ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ؛ «وَأَمَّا مَن يَسأَلُ النَّاسَ، وَيَحتَاجُ لِمَا عِندَهُم، فَإِنَّهُ سَيَبقَى قَلبُهُ فَقِيرًا، وَالعِيَاذُ بِاللَّهِ، وَلَا يَستَغنِي.

وَالغِنَى غِنَى القَلبِ: فَإِذَا استَغنَى الإِنسَانُ بِمَا عِندَ اللَّهِ، عَمَّا فِي أَيدِي النَّاسِ، أَغنَاهُ اللَّهُ عَنِ النَّاسِ،

---

(١) «ديوان الحُطَيئَة» (ص٩٤).
(٢) قطعة من حديث: رواه البخاري (١٤٢٧).



وَجعَلَهُ عَزِيزَ النَّفسِ، بَعِيدًا عَنِ السُّؤَالِ»[١].

وَلِعَبدِ اللَّهِ بنِ المُبَارَكِ:

أَرَى رِجَالًا بِدُونِ الدِّينِ قَد قَنِعُوا
وَلَا أَرَاهُم رَضُوا فِي العَيشِ بِالدُّونِ
فَاستَغنِ بِاللَّهِ عَن دُنيَا المُلُوكِ كَمَا اسـ
ـتَغنَى المُلُوكُ بِدُنيَاهُم عَنِ الدِّينِ[٢]

فَيَنبَغِي لِلإِنسَانِ أَن يَستَغنِيَ عَمَّا فِي أَيدِي النَّاسِ، بَل وَيَستَغنِيَ عَنِ النَّاسِ، فَلَا يَطلُبَنَّ مِن أَحَدٍ شَيئًا إِلَّا عِندَ الضَّرُورَةِ؛ لَا يَطلُبُ مَالًا، وَلَا يَطلُبُ مُسَاعَدَةً، وَلَا يَطلُبُ شَفَاعَةً؛ وَلَا يَطلُبُ أَيَّ شَيءٍ إِلَّا عِندَ الضَّرُورَةِ، لِأَنَّهُ لَا يَتَحَقَّقُ كَونُهُ غَنِيًّا إِلَّا بِهَذَا[٣].

فَأَصبَحَ حُرًّا عِزَّةً وَصِيَانَةً
عَلَى وَجهِهِ أَنوَارُهُ وَضِيَاؤُهُ[٤]

---

(١) «شرح رياض الصالحين» (١/ ١٩٤ - ١٩٥).
(٢) «بهجة المجالس» (٣/ ٣١٣).
(٣) «شرح بلوغ المرام» (٦/ ٣٠٠)، للعلاَّمة ابن عثيمين رحمه الله.
(٤) «موارد الأمان» (ص٤٣٢).

عَن سَهلِ بنِ سَعدٍ رَضِيَ اللهُ عَنهُ قَالَ: جَاءَ جِبرِيلُ عَلَيهِ السَّلَامُ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: «**يَا مُحَمَّدُ! عِش مَا شِئتَ فَإِنَّكَ مَيِّتٌ، وَأَحبِب مَن أَحبَبتَ فَإِنَّكَ مُفَارِقُهُ، وَاعمَل مَا شِئتَ فَإِنَّكَ مَجزِيٌّ بِهِ؛ ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ! شَرَفُ المُؤمِنِ قِيَامُ اللَّيلِ، وَعِزُّهُ استِغنَاؤُهُ عَنِ النَّاسِ**»[1].

(**وَعِزُّهُ**) قُوَّتُهُ وَغَلَبَتُهُ عَلَى غَيرِهِ (**استِغنَاؤُهُ**) اكتِفَاؤُهُ بِمَا قُسِمَ لَهُ (**عَنِ النَّاسِ**) أَي: عَمَّا فِي أَيدِيهِم، أَو عَن سُؤَالِهِم مِمَّا فِي أَيدِيهِم[2].

وَلِهَذَا قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ: «**استَغنُوا عَنِ النَّاسِ، وَلَو بِشَوصِ سِوَاكٍ**»[3].

(**استَغنُوا عَنِ النَّاسِ**) أَي تَعَفَّفُوا عَن مَسأَلَتِهِم، وَالمُرَادُ: أَنَّ العَبدَ يُشعِرُ قَلبَهُ فَقرَ الخَلقِ إِلَى رَبِّهِم

---

(١) رواه الحاكم (٤/ ٣٢٤ - ٣٢٥ رقم ٧٩٢١)، وحسنه لغيره الألباني رحمه الله في «الصحيحة» (٨٣١).
(٢) «التيسير بشرح الجامع الصغير» (١/ ٢١).
(٣) رواه البزار «البحر الزخار» (٤٨٢٤)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح الترغيب والترهيب» (٨١٨).

وَعَجزِهِم، وَأَنَّهُم تَحتَ قَهرِ قُدرَةِ مُوجِدِهِم، وَيَكُفُّ هِمَمَ نَفسِهِ عَنِ التَّطَلُّعِ إِلَيهِم، وَإِلَى مَا فِي أَيدِيهِم، وَجَوَارِحَهُ عَنِ الإِقبَالِ عَلَيهِم، وَيَقنَعُ بِمَا قُسِمَ لَهُ (**وَلَو بِشَوصِ سِوَاكٍ**) أَي: بِمَا تَفَتَّتَ مِنهُ عِندَ التَّسَوُّكِ، يَعنِي: اقنَعُوا بِأَدنَى مَا يَسُدُّ الرَّمَقَ، حَتَّى لَو فُرِضَ أَنَّهُ يَسُدُّهُ غُسَالَةُ السِّوَاكِ أَو مَا تَفَتَّتَ مِنهُ، فَاقنَعُوا بِهِ، وَأَلزِمُوا أَنفُسَكُمُ الاستِغنَاءَ عَنهُم، وَكُفُّوهَا عَنِ الطَّمَعِ فِيهِم، وَالنَّظَرِ إِلَى مَا فِي أَيدِيهِم[1].

فَالقَلِيلُ مِنَ الرِّزقِ، إِذَا أَكسَبَ القَنَاعَةَ، خَيرٌ مِنَ الكَثِيرِ الَّذِي لَا يُغنِي؛ وَمَن كَانَ غَنِيًّا بِاللهِ، فَهُوَ الغَنِيُّ حَقًّا، وَإِن قَلَّت حَوَاصِلُهُ[2]. وَهُوَ الَّذِي يُحِبُّهُ رَبُّهُ.

عَن سَعدِ بنِ أَبِي وَقَّاصٍ رَضِيَ اللهُ عَنهُ قَالَ: سَمِعتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «**إِنَّ اللهَ يُحِبُّ العَبدَ التَّقِيَّ**

---

(١) «فيض القدير» (٢/ ٩٧٣ - ٩٧٤).
(٢) «بهجة قلوب الأبرار» (ص٧٣).

الغَنِيَّ، الخَفِيَّ»[١].

الغَنِيّ: الَّذِي استَغنَى بِنَفسِهِ عَنِ النَّاسِ، غَنِيٌّ بِـاللهِ عَزَّ وَجَلَّ عَمَّن سِـوَاهُ، لَا يَسـأَلُ النَّـاسَ شَيئًا، وَلَا يَتَعَرَّضُ لِلنَّاسِ بِتَذَلُّلٍ؛ بَل هُوَ غَنِيٌّ عَنِ النَّاسِ، عَارِفٌ نَفسَهُ، مُستَغنٍ بِرَبِّهِ، لَا يَلتَفِتُ إِلَى غَيرِهِ[٢].

فَالجَزَاءُ مِن جِنسِ العَمَلِ، فَمَنِ استَغنَى عَمَّا فِي أَيدِي النَّاسِ، أَغنَاهُ اللهُ.

قَالَ مُحَمَّدُ بنُ حَازِمٍ البَاهِلِيُّ:

اضرَع إِلَى اللهِ لَا تَضرَع إِلَى النَّاسِ
وَاقنَع بِيَأسٍ فَإِنَّ العِزَّ فِي اليَاسِ
وَاستَغنِ عَن كُلِّ ذِي قُربَى وَذِي رَحِمٍ
إِنَّ الغَنِيَّ مَنِ استَغنَى عَنِ النَّاسِ[٣]

---

(١) رواه مسلم (٢٩٦٥).
(٢) «شرح رياض الصالحين» (٢/ ٥١١)، للعلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ.
(٣) «ديوان محمد بن حازم الباهلي» (ص٤٤).

وَمَن لَم يَستَغنِ «عَمَّا فِي أَيدِي النَّاسِ، لَم يُغنِهِ اللهُ عَنهُم؛ وَيَبقَى دَائِمًا مُتَلَهِّفًا إِلَى مَا فِي أَيدِي النَّاسِ، حَتَّى إِذَا مَا وَجَدَ مَعَ أَحَدٍ شَيئًا وَأَعجَبَهُ، قَالَ: زَينٌ، هَذَا الَّذِي مَعَكَ مِن أَينَ اشتَرَيتَهُ؟ دُلَّنِي عَلَيهِ، مَا الَّذِي يَفعَلُهُ مِثلُ هَذَا؟ يُمكِن أَن يَخجَلَ، وَيَقُولَ: خُذهُ. هَل نَقُولُ: هَذَا الرَّجُلُ مُستَغنٍ عَمَّا فِي أَيدِي النَّاسِ؟ لَا»[١].

عَن سَعدِ بنِ أَبِي وَقَّاصٍ رَضِيَ اللهُ عَنهُ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَوصِنِي وَأَوجِز؛ فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «**عَلَيكَ بِالإِيَاسِ مِمَّا فِي أَيدِي النَّاسِ**...»[٢].

أَي: «وَطِّن نَفسَكَ عَلَى التَّعَلُّقِ بِاللهِ وَحدَهُ، فِي أُمُورِ مَعَاشِكَ وَمَعَادِكَ، فَلَا تَسأَل إِلَّا اللهَ، وَلَا تَطمَع

---

(١) «شرح بلوغ المرام» (٣/ ٩٧ - ٩٨)، للعلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ.
(٢) رواه الحاكم (٤/ ٣٢٦ - ٣٢٧ رقم ٧٩٢٨)، وحسنه الألباني رَحِمَهُ اللهُ في «صحيح الترغيب والترهيب» (٢٨٣٢).

إِلَّا فِي فَضلِهِ. وَوَطِّن نَفسَكَ عَلَى اليَأسِ مِمَّا فِي أَيدِي النَّاسِ؛ فَإِنَّ اليَأسَ عِصمَةٌ، وَمَن أَيِسَ مِن شَيءٍ، استَغنَى عَنهُ. فَكَمَا أَنَّهُ لَا يَسأَلُ بِلِسَانِهِ إِلَّا اللَّهَ، فَلَا يُعَلِّقُ قَلبَهُ إِلَّا بِاللَّهِ. فَيَبقَى عَبدًا للهِ حَقِيقَةً، سَالِمًا مِن عُبُودِيَّةِ الخَلقِ. قَد تَحَرَّرَ مِن رِقِّهِم، وَاكتَسَبَ بِذَلِكَ العِزَّ وَالشَّرَفَ؛ فَإِنَّ المُتَعَلِّقَ بِالخَلقِ، يَكتَسِبُ الذُّلَّ وَالسُّقُوطَ، بِحَسَبِ تَعَلُّقِهِ بِهِم»[1].

فَمَا أَنفَعَ هَذِهِ الوَصِيَّةَ وَأَحلَاهَا[2].

قَالَ أَبُو حَاتِمٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: الإِيَاسُ: هُوَ بَذرُ الرَّاحَةِ وَالعِزِّ، كَمَا أَنَّ الطَّمَعَ هُوَ بَذرُ التَّعَبِ وَالذُّلِّ؛ فَكَم مِن طَامِعٍ تَعِبَ وَذَلَّ، وَلَم يَنَل بُغيَتَهُ! وَكَم مِن آيِسٍ استَرَاحَ وَتَعَزَّزَ، وَقَد أَتَاهُ مَا أَمَلَ وَمَا لَم يَأمَل[3].

وَقَالَ حَاتِمٌ الطَّائِيُّ:

---

(١) انظر: «بهجة قلوب الأبرار» (ص١٥١).
(٢) «المجموعة الكاملة» (٥/ ٤٩٧).
(٣) «روضة العقلاء ونزهة الفضلاء» (ص١٤٤).

إِذَا مَا عَزَمتَ اليَأسَ أَلفَيتَهُ الغِنَى
إِذَا عَرَفَتهُ النَّفسُ وَالطَّمَعُ الفَقرُ[1]

وَأَنشَدَ الحُسَينُ بنُ أَحمَدَ بنِ عُثمَانَ:

اليَأسُ أَدَّبَنِي وَرَفَّعَ هِمَّتِي
وَاليَأسُ خَيرُ مُؤَدِّبٍ لِلنَّاسِ
إِنِّي رَأَيتُ مَوَاضِعَ الطَّمَعِ الَّذِي
يَضَعُ الشَّرِيفَ مَوَاضِعَ الأَخسَاسِ[2]

وَعَنِ ابنِ مَسعُودٍ رضي الله عنه قَالَ: سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: مَا الغِنَى؟ قَالَ: «**اليَأسُ مِمَّا فِي أَيدِي النَّاسِ**»[3].

أَي: الزَمِ اليَأسَ مِمَّا فِي أَيدِي النَّاسِ، وَلَا تُحَدِّث نَفسَكَ أَن تَسأَلَ النَّاسَ شَيئًا، فَلَا تَلتَفِت

---

(١) «روضة العقلاء ونزهة الفضلاء» (ص١٤٤).
(٢) المصدر السابق (ص١٤١- ١٤٢).
(٣) رواه الطبراني في «الأوسط» (٥٧٧٦)، وحسنه الألباني رحمه الله بشواهده في «الصحيحة» (١٩١٤).

إِلَيهِ، وَلَا تستَشرف لَهُ بِقَلبِكَ، وَلَا تَتَعرَّض لَهُ بِحَالِكَ، وَلَا لِسَانِكَ، وَتَوَكَّل عَلَى اللَّهِ وَحدَهُ، وَثِق بِفَضلِهِ، وَاحفَظ مَاءَ وَجهِكَ، وَلَا تَبذُلهُ إِلَّا لِلكَرِيمِ المُتَفَضِّلِ المَنَّانِ، وَضَع نُصبَ عَينَيكَ قَولَهُ تَعَالَى: ﴿وَسْئَلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٣٢﴾﴾ [النساء: ٣٢].

«وَهَذَا أَمرٌ يَجِدُهُ الإِنسَانُ مِن نَفسِهِ، فَإِنَّ الأَمرَ الَّذِي يَيأَسُ مِنهُ لَا يَطلُبُهُ، وَلَا يَطمَعُ فِيهِ، وَلَا يَبقَى قَلبُهُ فَقِيرًا إِلَيهِ، وَلَا إِلَى مَن يَفعَلُهُ.

وَأَمَّا إِذَا طَمِعَ فِي أَمرٍ مِنَ الأُمُورِ وَرَجَاهُ، فَإِنَّ قَلبَهُ يَتَعَلَّقُ بِهِ، فَيَصِيرُ فَقِيرًا إِلَى حُصُولِهِ، وَإِلَى مَن يَظُنُّ أَنَّهُ سَبَبٌ فِي حُصُولِهِ»(١). وَذَلِكَ هُوَ الخُسرَانُ المُبِينُ. وَمَن أَيِسَ مِن شَيءٍ، استَغنَى عَنهُ(٢).

قَالَ أَبُو حَاتِمٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: أَشرَفُ المُنَى تَركُ الطَّمَعِ

(١) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ١٨١).
(٢) «المجموعة الكاملة» (٥/ ٤٩٧).

إِلَى النَّاسِ، إِذ لَا غِنَى لِذِي طَمَعٍ، وَتَارِكُ الطَّمَعِ يَجمَعُ بِهِ غَايَةَ الشَّرَفِ، فَطُوبَى لِمَن كَانَ شِعَارُ قَلبِهِ الوَرَعَ، وَلَم يُعمِ بَصَرَهُ الطَّمَعُ؛ وَمَن أَحَبَّ أَن يَكُونَ حُرًّا، فَلَا يَهوَى مَا لَيسَ لَهُ، لِأَنَّ الطَّمَعَ فَقرٌ، كَمَا أَنَّ اليَأسَ غِنًى، وَمَن طَمِعَ ذَلَّ وَخَضَعَ، كَمَا أَنَّ مَن قَنِعَ عَفَّ وَاستَغنَى(١).

وَقَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ: الطَّمَعُ غُدَّةٌ مِن قَلبِ المَرءِ لَهُ طَرَفَانِ، أَحَدُهُمَا: القَيدُ فِي رِجلَيهِ، وَالآخَرُ الطَّبعُ عَلَى لِسَانِهِ، فَمَا دَامَتِ العُقدَةُ قَائِمَةً، لَا تَنفَكُّ رِجلَاهُ، وَلَا يَنطِقُ لِسَانُهُ؛ فَإِذَا أُخرِجَ الطَّمَعُ مِن قَلبِهِ، انفَكَّ القَيدُ مِن رِجلَيهِ، وَزَالَ الطَّبعُ عَن لِسَانِهِ، فَسَعَى إِلَى مَا شَاءَ، وَقَالَ مَا أَحَبَّ(٢).

وَالعَبدُ لَا بُدَّ لَهُ مِن رِزقٍ، وَهُوَ مُحتَاجٌ إِلَى ذَلِكَ، فَإِذَا طَلَبَ رِزقَهُ مِنَ اللَّهِ: صَارَ عَبدًا لِلَّهِ،

(١) «روضة العقلاء ونزهة الفضلاء» (ص١٤٢).
(٢) المصدر السابق (ص١٤٣).

فَقِيرًا إِلَيهِ؛ وَإِن طَلَبَهُ مِن مَخلُوقٍ: صَارَ عَبدًا لِذَلِكَ المَخلُوقِ، فَقِيرًا إِلَيهِ. قَالَ الخَلِيلُ ﷺ: ﴿فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ﴾ [العنكبوت: ١٧][1]. وَهَذَا أَمرٌ، وَالأَمرُ يَقتَضِي الإِيجَابَ[2]. وَقَد قَالَ تَعَالَى: ﴿وَسۡـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضۡلِهِۦٓ﴾ [النساء: ٣٢]، وَالإِنسَانُ لَا بُدَّ لَهُ مِن حُصُولِ مَا يَحتَاجُ إِلَيهِ مِنَ الرِّزقِ وَنَحوِهِ، وَدَفعِ مَا يَضُرُّهُ، وَكِلَا الأَمرَينِ شَرَعَ لَهُ أَن يَكُونَ دُعَاؤُهُ للهِ؛ فَلَهُ أَن يَسأَلَ اللهَ وَإِلَيهِ يَشتَكِي، كَمَا قَالَ يَعقُوبُ عليه السلام: ﴿إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٦][3].

فَإِن قُلتَ: وَمَا الَّذِي يُسَهِّلُ عَلَيَّ اليَأسَ مِمَّا فِي أَيدِي النَّاسِ؟

قُلتُ: يُسَهِّلُهُ عَلَيكَ عِلمُكَ يَقِينًا أَنَّهُ لَيسَ مِن شَيءٍ يُطمَعُ فِيهِ، إِلَّا وَبِيَدِ اللهِ وَحدَهُ خَزَائِنُهُ، لَا يَملِكُهَا غَيرُهُ،

(١) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ١٨١).
(٢) المصدر السابق (١٠/ ٦٦٢).
(٣) المصدر السابق (١٠/ ١٨١ - ١٨٣).

وَلَا يُؤتِي العَبدَ مِنهَا شَيئًا سِوَاهُ[1]. قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٖ مَّعۡلُومٖ ٢١﴾ [الحجر: ٢١]؛ فَكُلُّ شَيءٍ لَا يُطلَبُ إِلَّا مِمَّن عِندَهُ خَزَائِنُهُ، وَمَفَاتِيحُ تِلكَ الخَزَائِنِ بِيَدَيهِ؛ وَأَنَّ طَلَبَهُ مِن غَيرِهِ، طَلَبٌ مِمَّن لَيسَ عِندَهُ، وَلَا يَقدِرُ عَلَيهِ»[2].

فَإِذَا كَانَ كُلُّ خَيرٍ فَأَصلُهُ التَّوفِيقُ - وَهُوَ بِيَدِ اللهِ لَا بِيَدِ العَبدِ -: فَمِفتَاحُهُ الدُّعَاءُ وَالِافتِقَارُ، وَصِدقُ اللَّجَإِ وَالرَّغبَةُ وَالرَّهبَةُ إِلَيهِ، فَمَتَى أَعطَى العَبدَ هَذَا المِفتَاحَ، فَقَد أَرَادَ أَن يَفتَحَ لَهُ، وَمَتَى أَضَلَّهُ عَنِ المِفتَاحِ، بَقِيَ بَابُ الخَيرِ مُرتَجًا[3] دُونَهُ[4].

ثُمَّ إِذَا عَلِمَ حَقَّ العِلمِ أَنَّ تَعَلُّقَ القَلبِ بِالمَخلُوقِ يَهبِطُ بِصَاحِبِهِ إِلَى أَسفَلِ الدَّرَكَاتِ، وَيَجعَلُهُ حَقِيرًا ذَلِيلًا مَهِينًا مُهَانًا، وَأَنَّ ذَلِكَ غَيرُ نَافِعٍ وَلَا مُفِيدٍ، بَل

(١) «فوائد الفوائد» (ص٤٢١).
(٢) المصدر السابق (ص٢٣).
(٣) أي: مغلقًا.
(٤) «فوائد الفوائد» (ص٩٠).

ضُرُّهُ كَبِيرٌ وَشَرُّهُ مُستَطِيرٌ، مَتَى عَلِمَ ذَلِكَ حَقَّ العِلمِ، لَم يَركَن إِلَى أَحَدٍ مِنَ الخَلقِ، وَلَم يَرجُهُم، وَلَم يَملِكُوا عَلَيهِ ضَمِيرَهُ، حَتَّى يَكُونَ أَسِيرًا لَهُم عَبدًا ذَلِيلًا، يَأنَفُ مِن ذَلِكَ كُلِّهِ[١].

قَالَ شَيخُ الإِسلَامِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَالعَبدُ كُلَّمَا كَانَ أَذَلَّ للهِ، وَأَعظَمَ افتِقَارًا إِلَيهِ، وَخُضُوعًا لَهُ: كَانَ أَقرَبَ إِلَيهِ، وَأَعَزَّ لَهُ، وَأَعظَمَ لِقَدرِهِ، فَأَسعَدُ الخَلقِ: أَعظَمُهُم عُبُودِيَّةً للهِ. وَأَمَّا المَخلُوقُ، فَكَمَا قِيلَ: احتَج إِلَى مَن شِئتَ تَكُن أَسِيرَهُ، وَاستَغنِ عَمَّن شِئتَ تَكُن نَظِيرَهُ، وَأَحسِن إِلَى مَن شِئتَ تَكُن أَمِيرَهُ.

فَأَعظَمُ مَا يَكُونُ العَبدُ قَدرًا، وَحُرمَةً عِندَ الخَلقِ: إِذَا لَم يَحتَج إِلَيهِم بِوَجهٍ مِنَ الوُجُوهِ، فَإِن أَحسَنتَ إِلَيهِم مَعَ الِاستِغنَاءِ عَنهُم: كُنتَ أَعظَمَ مَا يَكُونُ عِندَهُم، وَمَتَى احتَجتَ إِلَيهِم - وَلَو فِي شَربَةِ مَاءٍ -: نَقَصَ قَدرُكَ عِندَهُم بِقَدرِ حَاجَتِكَ إِلَيهِم، وَهَذَا مِن حِكمَةِ اللهِ

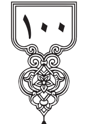
(١) «المجموعة الكاملة» (٥/ ٤٩٧).

وَرَحمَتِهِ، لِيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ للهِ، وَلَا يُشرَكُ بِهِ شَيءٌ.

فَالرَّبُّ سُبحَانَهُ: أَكرَمُ مَا تَكُونُ عَلَيهِ: أَحوَجُ مَا تَكُونُ إِلَيهِ، وَأَفقَرُ مَا تَكُونُ إِلَيهِ. وَالخَلقُ: أَهوَنُ مَا يَكُونُ عَلَيهِم: أَحوَجُ مَا يَكُونُ إِلَيهِم، لِأَنَّهُم كُلَّهُم مُحتَاجُونَ فِي أَنفُسِهِم، فَهُم لَا يَعلَمُونَ حَوَائِجَكَ، وَلَا يَهتَدُونَ إِلَى مَصلَحَتِكَ؛ بَل هُم جَهَلَةٌ بِمَصَالِحِ أَنفُسِهِم، فَكَيفَ يَهتَدُونَ إِلَى مَصلَحَةِ غَيرِهِم؟! فَإِنَّهُم لَا يَقدِرُونَ عَلَيهَا، وَلَا يُرِيدُونَ مِن جِهَةِ أَنفُسِهِم، فَلَا عِلمَ وَلَا قُدرَةَ وَلَا إِرَادَةَ. وَالرَّبُّ تَعَالَى يَعلَمُ مَصَالِحَكَ وَيَقدِرُ عَلَيهَا، وَيُرِيدُهَا رَحمَةً مِنهُ وَفَضلًا، وَذَلِكَ صِفَتُهُ مِن جِهَةِ نَفسِهِ، لَا شَيءَ آخَرَ جَعَلَهُ مُرِيدًا رَاحِمًا، بَل رَحمَتُهُ مِن لَوَازِمِ نَفسِهِ، فَإِنَّهُ كَتَبَ عَلَى نَفسِهِ الرَّحمَةَ، وَرَحمَتُهُ وَسِعَت كُلَّ شَيءٍ»[١].



(١) «مجموع الفتاوى» (١/ ٣٩ - ٤٠).






سُؤالٌ وجوابٌ

هَلِ الاِستِغنَاءُ عَنِ النَّاسِ: أَن يَجلِسَ الإِنسَانُ بِالبَيتِ؟

الاِستِغنَاءُ عَنِ النَّاسِ: أَنَّ الإِنسَانَ يَعمَلُ وَيَحتَرِفُ، يَكتَسِبُ، يَعمَلُ بِالأَسبَابِ، يَحتَطِبُ وَيَبِيعُ، يَحتَرِفُ وَيَكُدُّ بِيَدِهِ، وَيَعمَلُ أَسبَابَ طَلَبِ الرِّزقِ، يَستَغنِي عَنِ النَّاسِ بِذَلِكَ.

عَن أَبِي هُرَيرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنهُ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**وَالَّذِي نَفسِي بِيَدِهِ، لَأَن يَأخُذَ أَحَدُكُم حَبلَهُ، فَيَحتَطِبَ عَلَى ظَهرِهِ؛ خَيرٌ لَهُ مِن أَن يَأتِيَ رَجُلًا، فَيَسأَلَهُ، أَعطَاهُ أَو مَنَعَهُ**»[1].

وعَنهُ رَضِيَ اللهُ عَنهُ: عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**مَا بَعَثَ اللهُ**

---

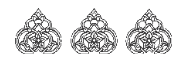
(١) رواه البخاري (١٤٧٠)، ومسلم (١٠٤٢).

نَبِيًّا، إِلَّا رَعَى الغَنَمَ». فَقَالَ أَصحَابُهُ: وَأَنتَ؟ فَقَالَ: «**نَعَم، كُنتُ أَرعَاهَا عَلَى قَرَارِيطَ لِأَهلِ مَكَّةَ**»(١).

أَمَّا أَن يَجلِسَ وَلَا يَعمَلَ شَيئًا: فَهَذَا لَيسَ مِنَ الِاستِغنَاءِ عَنِ النَّاسِ، لَكِن إِذَا بَذَلَ الأَسبَابَ: بَاعَ وَاشتَرَى، أَوِ احتَرَفَ أَو عَمِلَ صِنَاعَةً، أَو غَيرَ ذَلِكَ؛ فَإِنَّ هَذِهِ الأَسبَابَ، يَجعَلُ اللهُ فِيهَا البَرَكَةَ، فَتُغنِيهِ عَنِ النَّاسِ. فَهَذَا نَبِيُّ اللهِ دَاوُدُ عليه السلام، كَانَ يَصنَعُ الدُّرُوعَ وَيَبِيعُ وَيَأكُلُ مِن كَسبِ يَدِهِ، وَعِندَهُ مَالُ الدَّولَةِ مَالٌ عَظِيمٌ، مَلِكٌ، مَا كَانَ يَأكُلُ مِن مَالِ الدَّولَةِ عليه السلام وَخَزِينَةِ الدَّولَةِ، مَعَ أَنَّهُ لَهُ حَقٌّ أَن يَأكُلَ مِن خَزِينَةِ الدَّولَةِ؛ لَكِن مِنَ التَّعَفُّفِ تَرَكَ ذَلِكَ، وَصَارَ يَعمَلُ بِيَدِهِ، وَيَأكُلُ مِن عَمَلِ يَدِهِ، وَهُوَ نَبِيُّ اللهِ، وَمَلِكٌ مِنَ المُلُوكِ، يَحتَرِفُ وَيَصنَعُ بِيَدِهِ وَيَبِيعُ، المَلِكُ يَحتَرِفُ وَيَصنَعُ بِيَدِهِ وَيَبِيعُ، وَيَأكُلُ مِن كَسبِ يَدِهِ! فَالِاستِغنَاءُ مَعنَاهُ: أَنَّهُ يَلتَمِسُ طَرِيقًا لِلرِّزقِ، غَيرَ السُّؤَالِ وَالتَّطَلُّعِ

(١) رواه البخاري (٢٢٦٢).

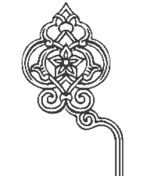
لِأَموَالِ النَّاسِ، وَكَانَ نُوحٌ عليه السلام نَجَّارًا، وَ«كَانَ زَكَرِيَّا نَجَّارًا»(١)، وَمِنَ الأَنبِيَاءِ مَن هُم أَصحَابُ حِرَفٍ وَصِنَاعَاتٍ، وَهُم أَنبِيَاءُ اللهِ أَفضَلُ الخَلقِ، قَالَ ﷺ: «**مَا أَكَلَ أَحَدٌ طَعَامًا قَطُّ، خَيرًا مِن أَن يَأكُلَ مِن عَمَلِ يَدِهِ، وَإِنَّ نَبِيَّ اللهِ دَاوُدَ** عليه السلام، **كَانَ يَأكُلُ مِن عَمَلِ يَدِهِ**»(٢)؛ الحِرفَةُ شَرَفٌ، وَكَونُ الإِنسَانِ يَحتَطِبُ، وَيَحمِلُ عَلَى رَأسِهِ وَيَبِيعُ: هَذَا شَرَفٌ، أَشرَفُ مِنَ الَّذِي يَسأَلُ النَّاسَ(٣).



(١) كما في «صحيح مسلم» (٢٣٧٩)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) رواه البخاري (٢٠٧٢)، من حديث المقدام رضي الله عنه.
(٣) انظر: «تسهيل الإلمام» (٣/ ١٦٧ - ١٦٨)، للعلَّامة الدكتور صالح الفوزان، حفظه الرحمن - ببعض تصرُّف -.







الخَاتِمَةُ

الحَمدُ للهِ الَّذِي يُجِيبُ المُضطَرَّ إِذَا دَعَاهُ، وَيُغِيثُ المَلهُوفَ إِذَا نَادَاهُ، وَيَكشِفُ السُّوءَ وَيُفَرِّجُ الكُرُبَاتِ، وَيُقِيلُ العَثَرَاتِ، الَّذِي لَا تَسكُنُ الأَروَاحُ إِلَّا بِحُبِّهِ، وَلَا تَطمَئِنُّ القُلُوبُ إِلَّا بِذِكرِهِ، وَلَا يُدرَكُ النَّجَاحُ إِلَّا بِتَوفِيقِهِ، وَلَا يَقَعُ أَمرٌ إِلَّا بِإِذنِهِ؛ وَلَا يَهتَدِي ضَالٌّ إِلَّا بِهِدَايَتِهِ، وَلَا يُتَخَلَّصُ مِن مَكرُوهٍ إِلَّا بِرَحمَتِهِ، وَلَا يُحفَظُ شَيءٌ إِلَّا بِكَلَاءَتِهِ، وَلَا يُفتَتَحُ أَمرٌ إِلَّا بِاسمِهِ، وَلَا يَتِمُّ إِلَّا بِحَمدِهِ، وَلَا يُدرَكُ مَأمُولٌ إِلَّا بِتَيسِيرِهِ، وَلَا تُنَالُ سَعَادَةٌ إِلَّا بِطَاعَتِهِ، وَلَا حَيَاةٌ إِلَّا بِذِكرِهِ.

هَذَا مَا تَيَسَّرَ الكَلَامُ عَنهُ: مِن صِفَةِ الغِنَى، وَأَثَرِ الإِيمَانِ بِهَا، فَإِنَّهُ مَا أُطِيلَ الكَلَامُ فِيهَا، إِلَّا لِفَرطِ الحَاجَةِ، وَالضَّرُورَةِ إِلَى مَعرِفَتِهَا، وَمَعرِفَةِ آثَارِهَا؛ فَلِيَتَأَمَّلهَا اللَّبِيبُ، وَلِيَجعَلهَا سِيرَهُ وَسُلُوكَهُ، وَلِيَبنِ



عَلَيهَا عُلُومَهُ وَأَعمالَهُ، وَأَقوالَهُ وَأَحوالَهُ، فَمَا نَتَجَ مَن نَتَجَ إِلَّا مِنهَا، وَلَا تَخَلَّفَ مَن تَخَلَّفَ إِلَّا مِن فَقدِهَا.

وَفِي الخِتَام: فَحَقِيقٌ لِمَن نَصَحَ نَفسَهُ، وَأَحَبَّ سَعَادَتَهَا وَنَجَاتَهَا: أَن يَتَيَقَّظَ لِهَذِهِ المَسأَلَةِ عِلمًا وَعَمَلًا وَحَالًا، وَتَكُونَ أَهَمَّ الأَشيَاءِ عِندَهُ، وَأَجَلَّ عُلُومِهِ وَأَعمَالِهِ، فَإِنَّ الشَّأنَ كُلَّهُ فِيهَا، وَالمَدَارَ عَلَيهَا.

وَاللَّهُ المُوَفِّقُ لِمُرَاعَاةِ ذَلِكَ، وَالقِيَامِ بِهِ عَمَلًا وَحَالًا، كَمَا وَفَّقَ لَهُ عِلمًا وَمَعرِفَةً، إِنَّهُ وَلِيُّ ذَلِكَ وَالمَانُّ بِهِ، وَهُوَ حَسبُنَا وَنِعمَ الوَكِيلُ.







الفِهرِس



الموضوع — الصفحة

الكَلَامُ عَلَى فَقرِ الخَلَائِقِ

الموضوع — الصفحة

الفَائِدَةُ المَسلَكِيَّةُ مِنَ الإِيمَانِ بِصِفَةِ الغِنَى

أَسبَابُ تَحصِيلِ الغِنَى











صَدَرَ لِلمُؤَلِّفِ

- الأَسـمَـاءُ الحُسنَى وَالـصِّـفَـاتُ العُلَى
- الكَلِمَاتُ الحِسَانُ فِي بَيَانِ عُلُوِّ الرَّحمَنِ
- الحِصنُ الحَصِينُ مِنَ الشَّيطَانِ الرَّجِيمِ
- تَـذكِـيرُ الأَنَـامِ بِفَـضلِ صَـلَاةِ القِـيَامِ
- تَـذكِـيرُ الإِنـسَـانِ بِـعَـدَاوَةِ الشَّـيطَانِ
- إِصــــــلَاحُ الــــقُــــلُــــوبِ
- آثَـارُ الـذُّنُـوبِ عَـلَى الأَفـرَادِ وَالشُّعُوبِ
- تَـحـذِيـرُ الـسَّـالِـكِ مِـنَ الـمَـهَـالِـكِ
- الـتَّـــوبَــةُ طَــرِيــقٌ إِلَـــى الـجَـنَّــةِ
- وَقَــــفَـــــاتٌ قَــبــلَ الـــفَـــوَاتِ
- فِـــــي ظِـــــــلَالِ الـــتَّـــقـــوَى
- تُـحفَـةُ الأَبــرَارِ بِـفَـضَـائِـلِ الأَذكَـارِ

- غَـايَـةُ البَـيَـانِ فِـي إِثـبَـاتِ عُـلُـوِّ الرَّحـمَـنِ
- صِـفَـةُ الـمَـحَـبَّـةِ مِـنَ الـكِـتَـابِ وَالـسُّـنَّـةِ
- الـخِـصَـالُ الـمُـنـجِـيَـةُ فِـي الـدُّنـيَـا وَالآخِـرَةِ
- الـدُّرَرُ الـثَّـمِـيـنَـةُ مِـنَ الأَدعِـيَـةِ الـنَّـبَـوِيَّـةِ
- تَـذكِـيـرُ الإِنـسَـانِ بِـحِـفـظِ الـعَـيـنِ وَالـلِّـسَـانِ
- أَزمَـةٌ خُـلُـقِـيَّـةٌ
- الـخِـصَـالُ الـمُـوجِـبَـةُ لِـدُخُـولِ الـجَـنَّـةِ
- فِـي ظِـلَالِ الـمَـحَـبَّـةِ
- الـصَّـلَاةُ خُـشُـوعٌ وَإِقـبَـالٌ

